ابداعات عالمية

نصوص ومقالات

غابرييل غارسيا ماركيز

قصص ضائعة

ترجمها عن الإسبانية

صالح علماني

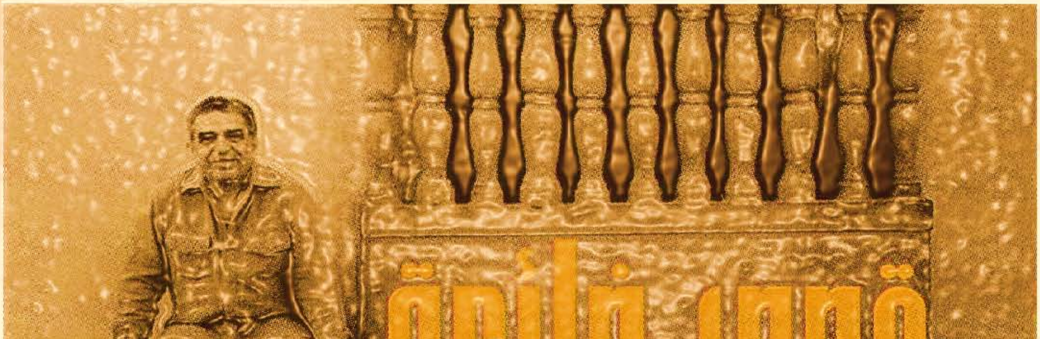

قصص ضائعة

قصص رائعة

رقم التصنيف ٨١٣
المؤلف ومن هو في حكمه غابرييل غارسيا ماركيز، ترجمة صالح علماني
عنوان المصنف : قصص ضائعة ، ط٢
الموضوع الرئيسي : ١ـ الآداب
٢ـ القصة الإنجليزية المترجمة
رقم الإيداع (١٩٩٧/١١/١٧٤٥)
بيانات النشر : عمان: دار أزمنة
*ـ تم إعداد بيانات الفهرسة الأولية من قبل المكتبة الوطنية

ISBN 9957-09-008-9 (ردمك)

- قصص ضائعة: غابرييل غارسيا ماركيز
- الطبعة الأولى : منارات ، ١٩٩٠
- الإصدار الثاني: أزمنة® ١٩٩٩

جميع الحقوق محفوظة بموجب اتفاق وعقد

أزمنة للنشر والتوزيع
تلفاكس : ٥٥٢٢٥٤٤
ص.ب : ٩٥٠٢٥٢
عمّان ١١١٩٥ الأردن
شارع وادي صقرة، عمارة الدوحة، ط ٤

All rights reserved. No Part of this book may be reproduced, stored in all retrieval system or trasmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة ، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطّي مسبق من الناشر

تصميم الغلاف : أزمنة (الياس فركوح)
فرز وسحب الأفلام: الشروق
الطباعة: شركة الشرق الأوسط للطباعة
تاريخ الصدور : كانون الثاني ١٩٩٩

ابداعات عالمية
نصوص

غابرييل غارسيا ماركيز

قصص ضائعة

ترجمة
صالح علماني

ورد

المحتوى

١ - هذه هي القصة ، كما رووها لي ٧
٢ - قصص ضائعة ١٢
٣ - اشباح الدروب ١٧
٤ - ساعات غراهام غرين العشرين في هافانا ٢٢
٥ - الولايات المتحدة ، بابها مغلقاً خير منه موارباً ٢٨
٦ - أبهة الموت ٣٣
٧ - الكاتب السينمائي في الظل ٣٧
٨ - شيخوخة لويس بونويل الشابة ٤٢
٩ - احدى حماقات انطوني كوين ٤٧
١٠- معجم للحياة الحقيقية ٥٢
١١- العظماء الذين لم يكونوا كذلك ابداً ٥٦
١٢- هل تعلم من هي ميرسيه رودوريدا ؟ ٦٣
١٣- مقابلة صحفية ؟ لا ، شكراً ٦٨
١٤- العودة من الطائرة الى البغلة ... يا للسعادة ! ٧٣
١٥- ايام العيد س ٧٨
١٦- ما لم تحزره نبوآت اوراكل ٨٣
١٧- /٢٥/ مليار كيلومتر مربع بلا زهرة واحدة ٨٨
١٨- انفجار ديموقليس ٩٢
١٩- مذكرات مدخن متقاعد ٩٩
٢٠- الزوجات السعيدات ينتحرن في الساعة السادسة ١٠٤

هذه هي القصة ، كما رووها لي

لم يكن كارلو دي لوكا - وريث امبراطورية صناعية واسعة ورئيسها - واحداً من اكثر الرجال نفوذاً في ايطاليا وهو في السادسة والثلاثين من عمره وحسب ، بل ربما كان اكثرهم أناقة وكياسة كذلك .فلم يكن للحفلات في روما أو ميلانو أي طعم دون مشاركته . وفضلاً عن كونه محدثاً لامعاً بخمس لغات يتقنها تماماً ، كان يعزف البيانو، والجيتار ، والساكسفون مثل محترف في العزف ، ويغني ويرقص وكان الغناء والرقص مهنته ، وكان طياراً مجرباً ، ورياضياً متعدد الرياضات، وحاوياً مذهلاً ، ومقلداً باهراً للشخصيات المشهورة. وعلى الرغم من المهمات الكثيرة التي كانت تحاصره ، سواء في عمله أو في الحياة الاجتماعية ، فقد كانت حياته الزوجية منسجمة ومستقرة . وكانت زوجته الجميلة والرشيقة تبدو سعيدة . وكان له ابن وحيد ، اسمه بيرو ، عمره ثمان سنوات .

لقد أثارت شخصية ذلك الرجل الاخاذ ، قلقاً غامضاً في قلب سيلفيو بينيالبير ، وهو مهاجر أمريكي لاتيني ، خجول وكفؤ جداً ، كان قد توصل خلال سنوات قليلة إلى موقع جيد في إحدى شركات كارلو دي لوكا الصغرى . كان رب العمل في نظر بينيالبير هو نموذج الرجل السعيد ، وقد بدا له ذلك اليقين امراً لا يطاق ، لأسباب من النوع الأخلاقي ، لم يستطع هو نفسه تفسيرها .

فقد كان يضايقه بشكل خاص ازدواج شخصية رب عمله : شخصيته في العمل حيث كان بخيلاً ومتسلطاً ؛وشخصيته في حياته العامة ، حيث كان سحره مبهراً بشكل غير طبيعي . وفي حفلة للإداريين العاملين في المؤسسة ، دعي إليها بينيالبير مع زوجته لأول مرة ، خطرت له تلك الفكرة الخبيثة ، بان كارلو دي لوكا يحتاج إلى نكبة ما ، ولو لمجرد جعله يعرف ان للسعادة حدوداً . ولكنها بالرغم من ذلك لم تكن سوى فكرة عابرة ، لم تترك اي اثر في قلبه .

كان بينيالبير يدير محرك دراجته النارية ليرجع الى بيته ، في يوم احد ربيعي ، عندما ظهر من أسوار الحديقة ابن دي لوكا الصغير . كان يلعب وحيداً في حديقة بيته الشاسعة ، ومثلما يحدث في أحيان كثيرة ، فقد تمكن من مغافلة وصيفته وبقية الخدم الذين يتولون السهر عليه دون توقف . أبدى الطفل افتتانه بالدراجة النارية الجديدة ، وطلب من بينيالبير أن يحمله معه في جولة ، وقرر هذا إرضاء رغبة الصغير . وقبل أن ينطلق ، ألبسه الخوذة الواقية التي كان يحتفظ بها في دراجته لكي يستخدمها ابنه ، وأعطاه بعض تعليمات الأمان . وقد تقيد الطفل المعتاد على صرامة بيته الشاملة ، بتلك التعليمات مفتوناً . كانت مجرد جولة بالطبع ، لكن الطفل الح على القيام بجولة أخرى ، ثم جولة ثالثة ، وفي كل جولة كان يبتعد عن البيت أكثر فاكثر . وفجاة ، انتبه بينيالبير إلى انه يملك بين يديه في تلك اللحظة سعادة كارلو دي لوكا التي لا حدود لها . كان ذلك إلهاماً مفاجئاً ومسكراً . حينئذ قام بدورة كاملة دون خطة مسبقة ، وضغط علي منظم البنزين حتى النهاية ، وابتعد عن البيت . وكان بيرو الصغير يغني متهللاً .

أجرى بينيالبير المكالمة الهاتفية الأولى من كافتيريا ، مغطياً السماعة بمنديل ، مثلما رأى مرة في السينما . وقد رد عليه كبير الخدم الذي أخبره بما

يعرفه ؛ فكارلو دي لوكا قد ذهب منذ نحو ساعة الى المطار ، وزوجته في هولندا. حينئذ بيّن بينيالبير لكبير الخدم ، بكلمات قليلة ، انه يتحدث باسم منظمة تحرر بروليتارية وهمية ، وان ابن كارلو دي لوكا الوحيد تحت سيطرته ، وان اطلاق سراحه لن يتم الا بعد تنفيذ شرطين لا عودة عنهما : دفع مبلغ خمسين مليون دولار نقداً ، وادخال مجموعة إصلاحات عميقة تتيح للعمال مشاركة أوسع في ادارة امبراطورية كارلو دي لوكا الصناعية . كان الصوت جدياً وحاسماً ، وكانت المهلة القاسية الممنوحة لإنقاذ حياة بيرو الصغير لا تكاد تكفي للتفكير : فهي اربع وعشرون ساعة فقط . تلقى كارلو دي لوكا الخبر حين كانت طائرة نيويورك تقف عند بداية المدرج ، مستعدة للاقلاع . فجعله ذلك الخبر يطير الى روما على الفور .

(يوم العمل الاكثر رهبة)

هكذا بدأ أرهب يوم عمل في حياة ذلك الرجل المعتاد على فراديس السلطة المصطنعة . اما بالنسبة لإبنه ، فقد كان ذلك اليوم هو يوم الاحد المختلف .

الحقيقة أن بينيالبير كان يعرف كيف يجعل الأطفال يحبونه ، وخصوصاً ابنه، كما انه كان يعرف جيداً جميع اماكن اللهو الطفولية في المدينة ، ولم يبق واحد منها إلا وأخذ اليه بيرو الصغير ، الذي احس فجأة بتخلصه من القواعد الصارمة ومن تقاليد حراسه الضيقة . رأى فيلماً عن قطاع الطرق ، واكل بوظة وحلويات حتى التخمة ، وتعلم التجديف في بحيرة الحديقة ، ومشى حافياً ، ووصل به الامر الى التمرغ في الوحل ، وركب في جميع الاجهزة في مدينة الألعاب الميكانيكية . ولم يكن قد جرب مطلقاً - منذ ولادته - مثل ذلك الاحساس بالحرية .

عند الغروب ، وصل بينيالبير إلى شقته في باريولي ، ومعه بيرو الصغير الذي كان يبدو غير متعب لفرط سعادته . كانت زوجته وابنه ينتظرانه لتناول العشاء ، بعد أن امضيا يوم أحد ممتعاً كذلك . فسّر بينيالبير وجود بيرو بابسط طريقة ممكنة : لقد رغب الطفل في أن ينام معهم ، لأن أبويه لن يكونا في روما تلك الليلة ، وقد الح الصغير كثيراً حتى ان كارلو دي لوكا نفسه منحه الإذن قبل أن يسافر إلى نيويورك .

كان عشاء ممتعاً . وقد تفاهم ابن بينيالبير وبيرو المحظوظ على أحسن ما يرام ، وتمكن هذا الأخير ، لأول مرة ، من أن ياكل ما يشاء ويرفض ما لا يرغب فيه ، وأن يخرق جميع قواعد اللياقة دون أن يؤنبه أحد على ذلك . وقد هدّأ بينيالبير من روع زوجته : الامر كله مجرد مزاح . فهو يرى انه من غير الأخلاقي أن يكون كارلو دي لوكا سعيداً كل تلك السعادة ، ويريد أن يقدم له ولو يوم أحد واحداً من الغم على الاقل . ولفتت زوجته انجيلا نظره إلى أن تلك المداعبة الثقيلة قد تكلفة الطرد من عمله . كان بينيالبير معتمداً على تواطؤ بيرو في عدم اكتشاف أمره ، لكنه كان مستعداً مع ذلك للعودة إلى بلاده ، حيث بدأت تتبدل الظروف السياسية التي اضطرته إلى الهجرة . وأدركت انجيلا ، التي كانت جدية وملهمة ، انه ليس أمامها من طريق آخر ، بعد أن وصلت الامور إلى ذلك المستوى ، سوى مشاركة زوجها المصير . ثم طمانتها نشرة أخبار التلفزيون حين لم ترد كلمة واحدة عن القضية . وانتهت إلى الاتفاق مع زوجها على أن يعيد الطفل إلى بيته سالماً ومعافى ، في صباح اليوم التالي الباكر .

لم ينم كارلو دي لوكا لحظة واحدة . كان الجدال مع شركائه طويلاً ومضنياً ، ولكنهم كانوا على وشك الوصول إلى اتفاق عند الفجر . بدأت حقائب المال القادم من مصادر متنوعة تتجمع في المكتب ، وكان يجري إعداد الخمسين

مليوناً لتسليمها . وفي الساعة السابعة صباحاً ، حين كانوا بانتظار المكالمة الأخيرة لإقرار تفاصيل تسليم الفدية ، فوجىء الجميع بالخبر الذي يقول إن بيرو قد رجع .

فعلاً ، لقد حمله بينيالبير على دراجته النارية حتى الحديقة المجاورة ، وودعه هناك بعد أن زوده بتعليمات مفصلة للوصول إلى بيته دون لف ولا دوران . ابتعد الطفل عنه دون حماس ، وكان حزيناً إلى حد ما ، لأن مغامرة حياته الكبرى قد انتهت . لم ينتبه هو ، ولا خاطفه اللطيف إلى أن اثنين من رجال الشرطة الكثيرين الذين كانوا يرصدون المنطقة - أحدهما متنكر بزي بائع حليب والآخر بزي كنّاس عام - قد اكتشفاهما .

خرج كارلو دي لوكا ، المنهوك من التوتر والسهر ، راكضاً لاستقبال ابنه . وفي تلك اللحظة بالذات ، توقفت أمامهما سيارة الشرطة التي كانت تحمل بينيالبير سجيناً . حينئذ ادرك كارلو دي لوكا الحقيقة ، وافرغ على مستخدمه كل شحنته من الغضب المتراكم خلال نحو عشرين ساعة من الجزع . أما الطفل الذي كان ما يزال بين يدي ابيه ، فقد مر بلحظة من التشوش . ولكن ما إن انطلقت سيارة الدورية بانوارها وصفاراتها ، حتى افلت نفسه من يدي أبيه ، وركض وراء السيارة الشرطية ، باكياً بصوت عالٍ ، ليمنعهم من أن ياخذوا إلى السجن اباه المزيف ، الذي منحه يوم الأحد السعيد الوحيد .

شاب من تشيكوسلوفاكيا ، غادر موطنه مدفوعاً بالرغبة في جمع ثروة . وبعد مرور خمس وعشرين سنة ، وكان قد تزوج واثرى ، رجع إلى مسقط رأسه، حيث كانت أمه واخته تملكان فندقاً .

ولمجرد مداعبتهما ، ترك المسافر زوجته في فندق آخر في البلدة ، واستاجر لنفسه غرفة في فندق الام والاخت ، اللتين لم تتعرفا عليه بعد سنوات الفراق الطويلة . كان ينوي ، كما يبدو ، أن يفصح عن شخصيته في اليوم التالي ، اثناء تناول الفطور . ولكن في منتصف الليل ، وفيما هو نائم ، قامت الأم والأخت بقتله لسرقة امواله .

هذه هي حبكة (سوء التفاهم) ، العمل المسرحي المعروف الذي كتبه ألبير كامي ، واستوحاه من واحدة من تلك القصص التي لا يعرف أصلها ، والتي تتناقلها التقاليد الشفوية - مع بعض التعديلات الطفيفة - ، ليس في المكان وحسب ، بل وفي الزمان أيضاً . في الطبعة الصادرة عن سلسلة بلياد لمسرحية كامي ، يقول كاتب ملاحظاتها وهوامشها روجيه كييو : إن للقصة عدة روايات ، وفي بلدان عديدة . وانها تظهر منذ العصور الوسطى في التقاليد الشفوية أو في الصحافة . ويكتب روجيه كييو قائلاً : « وقد دلني م . بول بينكاو على أغنية قديمة حول - الجندي الذي قتلته أمه - . كما ان القصة ذاتها ترد لدى لويس

كلود دي سانت مارتين على انها قصة بوليسية ، وقعت في «تورس » في شهر حزيران ١٧٩٦ . واخيراً ، فإن الكاتب الأمريكي اللاتيني دومنغو سارمينتو ، يؤكد : ان الاسطورة نفسها معروفة جيداً في تشيلي ، وانها تتطابق تماماً مع موضوع المأساة التي تحمل اسم (الرابع والعشرين من شباط) لثاكارياس ويرنير».

لست ادري إذا كانت توجد – ولا بد من وجودها – كتب تجمع مثل هذه القصص التي تتكرر في جميع انحاء العالم ، والتي يؤكد رواتها انهم كانوا شهود عيان على وقائعها . وهذا يعني : إما ان الرواة يكذبون ، وهو أمر محتمل، وإما ان تلك القصص تحدث فعلاً بشكل متشابه في أوساط ثقافية متباينة وازمنة مختلفة . واحدة من تلك القصص ، وقد تحدثت عنها في هذه الزاوية من قبل ، هي قصة السيارة التي تلتقط من الطريق امرأة متوحدة ، ما تلبث ان تختفي من مقعدها اثناء الرحلة . ولكن هناك تفصيل ثابت في القصة : ففي جميع رواياتها التي تروى في مختلف البلدان ، يكون قد وقع حادث مروع في المكان الذي تركب منه المرأة ، وتكون قد قضت نحبها في الحادث امرأة ترتدي ملابس مماثلة . وفي المرة الاخيرة التي كتبت فيها عن هذه القضية ، تلقيت رسائل كثيرة ، أخبرني مرسلوها ان الواقعة ذاتها قد جرت في أماكن متعددة ، ووصل الأمر بهم في بعض الأحيان إلى ذكر أسماء أبطالها . وقد أرسل لي أحدهم صوراً لعدة صفحات من كتاب لصديقي الكاتب الكتلاني فاثكيث مونتالبان ، وهو منشور قبل وقت طويل من نشر الصحف الفرنسية للواقعة كما جرت في الصيف الماضي .

إنني أعود إلى الموضوع اليوم ، لأن صديقاً من مكسيكو ، لا يمكن الشك بكلمته ، روى لي : انه قد عاش القصة ذاتها في أحد أيام الأسبوع

الماضي ، وفي عز النهار ، اثناء عودته من تاكسكو إلى مدينة مكسيكو ، على طريق اوتوستراد تسير عليه السيارات بكثرة تجعل المرء يتساءل أحياناً لماذا لم يضعوا شارات ضوئية عند بعض تقاطعاته .

لكن اغرب تلك القصص ، وأكثرها رعباً وتعقيداً ، هي تلك التي يُعتقد انها قد وقعت في مكان ما من افغانستان ، منذ سنوات طويلة . إنها قصة رجل التقى مصادفة ، في أحد الأسواق ، امرأة بدت له اجمل إمرأة في العالم . وتمشيا مع العادات المحلية ، لم يحاول الرجل إغواء الجميلة بالأساليب الغربية السليمة ، وإنما اتفق مع أبويها ، ولكنها فرضت على زوجها شرطاً ، لا يقتضي نومهما في غرفتين منفصلتين وحسب ، وانما الإمتناع كذلك عن اية علاقة جنسية ، اللهم إلا في بعض المناسبات القليلة التي تكون مستعدة فيها لذلك . وقد خضع الزوج لتلك القواعد المخالفة للطبيعة ، إلى أن اكتشف في إحدى الليالي أن زوجته تهرب من البيت فيما هو نائم ، وتذهب لزيارة عشيق سري ، في كوخ غير بعيد عن بيتها ، وكانت على علاقة به قبل زواجها . حينئذ لحق بها الزوج مسلحاً بسيفه ، وانتظر إلى أن خرجت من البيت الغريب لترجع الى بيتها ، فدخل وقطع رأس العشيق بضربة من سيفه . بعد ذلك مسح السيف ونظفه بحذر شديد ، حتى ان الزوجة حين فحصته – وهي تحاول معرفة مرتكب الجريمة – لم تجد اي اثر يتيح لها إتهام الزوج . واستطاع هذا الاخير من جهته ، أن يتوج أخيراً طموحه بالنوم مع أجمل امرأة في العالم ، التي انتهت بدورها الى الشعور بالسعادة معه ، ومنحته ثلاثة أبناء . وبعد سنوات طويلة ، وأثناء مرورهما مصادفة في أحد الأيام أمام كوخ العشيق الميت ، لم تستطع المرأة أن تواري اضطرابها ، وطلبت من زوجها أن يبتعدا عن ذلك المكان بأسرع ما يمكن . حينئذ أقدم الزوج على التهور الذي كشف أمره حين قال لها « لكنك

ما كنت تتعجلين كثيراً في تلك الأزمنة » . لم تبد المراة اية علامة تكشف عما تكنه ، ولكن حين رجع الزوج إلى بيته في تلك الليلة ، وجد ابناءه الثلاثة مقطوعي الرؤوس ، بالسيف ذاته الذي قطع به راس خصمه ، ولم يعد يعرف منذ ذلك الحين اي شيء عن اجمل امراة في العالم .

تتكرر هذه القصة ، باشكال متنوعة ، في كل مكان . لكن آخر من رواها هو بروفسور جامعي ، اكد انه كان في افغانستان ، وانه تعرف على بطلها . واضاف اليها امراً حاسماً : كانت في ظهر الرجل ندبة ، سببتها زوجته ذاتها بسيفه المتعطش إلى الدماء ، حين حاولت ان تقطع راسه هو ايضاً . وهذا الكلام يجعل من القصة قصة معاصرة بعد ان كان يعتقد انها قديمة جداً ، وانها ترجع الى الزمن الذي سبقت فيه السيوف الأسلحة النارية في الجرائم العاطفية ، وحين لم يكن ممكنا تصور قصة ذات نهاية سعيدة ، من هذه القصص التي تعتبر اليوم كارثة ادبية .

لقد قرات (الف ليلة وليلة) حين بدات اعي الدنيا ، وربما كان ذلك واحداً من الاسباب التي تجعلني اعتبره كتابي الذي لا ينسى . ولكنني كلما سمعت احداً يروي قصة العشيق مقطوع الراس ، تنبعث فيَّ انفعالات هاجعة من قراءات طفولتي الضبابية ، لكنني اعجز عن العثور على القصة في الطبعات المختلفة التي املكها من حكايات شهرزاد الخيالية . واصطدم دائماً مع ذلك بقصة مماثلة ومروعة : قصة المراة التي لا تاكل في بيتها إلا حبات من الأرز ، تلتقطها من الطبق حبة حبة بواسطة دبوس ، إلى ان إكتشف زوجها انها لا تاكل لكي تهرب من البيت ليلاً ، وتذهب لتاكل جثثاً في المقبرة . واصطدم كذلك بقصة اخرى هي من اجمل ما قرات في حياتي : قصة الصياد الذي يطلب من جار له رصاصاً لشبكته ، ويعده بان يعطيه مقابل ذلك اول سمكة يصطادها في

ذلك اليوم . ينجز وعده ، وحين تشق زوجة الجار السمكة لتنظفها ، تجد في بطنها ماسة بحجم حبة البندق . أجد هاتين القصتين وقصصاً كثيرة أخرى مذهلة ، ولكنني لا اتوصل الى اصل القصة الأخرى ، قصة أجمل إمراة في العالم ، تلك التي جزت رؤوس اولادها الثلاثة ، لأن زوجها قطع راس عشيقها. فهل هناك قاريء رحيم يساعدني في العثور عليه ؟

كان شابان وشابتان يسافرون معاً في سيارة رينو /٥/، وقد توقفوا في الطريق لالتقاط امرأة ترتدي ملابس بيضاء ، كانت قد استوقفتهم عند تقاطع طرق ، بعيد منتصف الليل . كان الجو صافياً ، وكان الشبان الأربعة - كما تم التاكد حتى الثمالة فيما بعد - يتمتعون بكامل قواهم العقلية . رافقتهم السيدة في الرحلة لعدة كيلومترات وهي تجلس صامتة في وسط المقعد الخلفي ، إلى ما قبل جسر « كاتري كامو » بقليل ، حينئذ أشارت إلى الأمام بإصبع مرتعشة وصرخت « حذار ، هذا منعطف خطر » واختفت في الحال .

حدث ذلك على الطريق العام ، بين باريس ومونبليه . ومفوض شرطة هذه المدينة الأخيرة ، الذي أيقظه الشبان الأربعة ليرووا له الحادث ، وصل به الأمر إلى القبول بان ما قالوه ليس مزاحاً ولا هذياناً ، لكنه حفظ القضية ، لأنه لم يعرف ما عليه أن يفعل بها . وقد تناولت الحادث في الايام التالية جميع صحف فرنسا ، وهرع عدد من علماء النفس ، وأطباء العيون ، ومحررو الريبورتاجات الماورائية الى مكان الرؤيا ليدرسوا ظروف وقوعها ، وانهكوا باستجواباتهم العقلانية الشبان الاربعة الذين اختارتهم السيدة ذات الملابس البيضاء . لكن النسيان طوى الامر برمته بعد عدة أيام ، ولاذ العلماء والصحافة بتحليل واقع اكثر بساطة ؛ ووافق اكثرهم تفهماً على أن الرؤيا قد تكون صحيحة ، ولكن حتى هؤلاء فضلوا نسيانها امام استحالة تفسيرها .

اما أنا – وأنا مادي راسخ – فلا يراودني أي شك في ان ذلك الحادث ، ما هو الا فصل آخر ، ومن اجمل الفصول ، في تاريخ تجسيد الشعر الغني . والعيب الوحيد الذي وجدته في القصة هو حدوثها ليلاً ، بل وعند حدّ منتصف الليل ، مثلما يحدث في أسوأ افلام الرعب .وبإستثناء ذلك ، لا وجود لعنصر واحد فيها لا يتفق مع ميتافيزيقية الدروب ، تلك التي شعرنا بها جميعنا قريبة منا اثناء إحدى رحلاتنا ، لكننا نرفض الاستسلام امام حقيقتها التي تبعث القشعريرة في الجسم . لقد انتهينا الى القبول باعجوبة السفن الشبحية التي تطوف جميع البحار باحثة عن هويتها الضائعة ، لكننا ما زلنا نرفض منح هذا الحق لأرواح كثيرة بائسة ومحزونة ، بقيت منثورة دون معنى على جوانب الدروب . ففي فرنسا وحدها ، سُجل منذ بضع سنوات موت مئتي شخص أسبوعياً في أشد شهور الصيف جنوناً ، وهكذا لا يمكن لنا ان نفاجأ بوقوع حدث مفهوم تماماً ، مثل حادث السيدة ذات الملابس البيضاء ، الذي سيتكرر دون ريب حتى نهاية العصور . والعقلانيون الذين بلا قلب هم وحدهم من سيعجزون عن فهم ظروف تلك الاحداث .

لطالما فكرت ، أثناء رحلاتي الطويلة على دروب العالم الكثيرة ، أننا معظم بني البشر في هذه الأزمنة ، لسنا إلا ناجين من الموت عند احد المنعطفات . وكل منعطف منها ما هو إلا تحدٍ خاضع للحظ . ويكفي أن تصيب السيارة التي أمامنا اية محنة بعد المنعطف ، حتى تضيع منا وإلى الأبد فرصة رواية ما حدث . لقد أصدر الانكليز ، في السنوات الأولى لاختراع السيارة ، قانوناً خاصاً – The Locomotive Act – يفرض بموجبه على كل سائق أن يرسل امامه شخصاً راجلاً يحمل راية حمراء ويرن جرساً ، لكي يتاح للعابرين الوقت الكافي للابتعاد من امام السيارة . وفي أحيان كثيرة ، وبينما

انا اضغط على دواسة البنزين لأغرق في اسرار احد المنعطفات الغامضة ، كنت اتاسف في أعماق روحي لأن مرسوم الانكليز الحكيم ذاك قد الغي ، وقد أحسست بذلك على نحو خاص في إحدى المرات ، منذ خمسة عشر عاماً ، اثناء رحلة كنت اقوم بها من برشلونة الى بيربينيان ومعي مرشيدس والطفلان ، وكنت أسير بسرعة مئة كيلو متر في الساعة حين راودني فجاة إلهام لا تفسير له ، يدعوني الى تخفيف السرعة قبل ان اصل المنعطف . ومثلما يحدث دوماً في مثل هذه الحالات ، فقد تجاوزتنا السيارات التي كانت وراءنا . لا يمكننا نسيان تلك السيارات أبداً : شاحنة صغيرة بيضاء ، وفوكس فاجن حمراء ، وفيات زرقاء . بل إنني ما زلت اذكر الشعر المجعد الأشقر للهولندية الأنيقة التي كانت تقود الشاحنة الصغيرة . وبعد ان تجاوزتنا تلك السيارات الثلاث في نظام كامل ، اختفت عن اعيننا في المنعطف ، لكننا ما لبثنا أن التقينا بها بعد لحظة، وقد اختلطت ببعضها بعضاً ، في ركام من الخردة المدخنة ، مصطدمة بشاحنة ضخمة كانت قادمة من الاتجاه المعاكس . الناجي الوحيد في ذلك الحادث كان طفلاً عمره ستة شهور ، وهو ابن الزوجين الهولنديين .

لقد عدت للمرور من ذلك المكان مرات كثيرة ، وفي كل مرة كنت أعود للتفكير في تلك المراة الجميلة ، التي تحولت الى كومة من اللحم الوردي في عرض الطريق . لقد كانت عارية تماماً بفعل الصدمة ، وقد منح الموت رأسها الجميل الذي يشبه راس امبراطور روماني ، مسحة من وقار . وليس مستغرباً ان يلتقي بها أحد المسافرين يوماً في مكان محنتها ، حية وتامة ، تشير له أن يتوقف مثلما أشارت سيدة مونبليه ذات الثياب البيضاء ، ليخرجها أحد من سباتها للحظة ، ويمنحها الفرصة لتحذره بالصرخة التي لم يطلقها أحد لتحذيرها : « حذار، هذا المنعطف خطير » .

ليست حكايات الدروب السرية اكثر شعبية من حكايات البحر ، لانه ليس هناك من هم اكثر شروداً من السائقين الهواة . اما المحترفون - الذين هم اشبه بالبغالين القدماء - فهم مصدر لا ينضب للحكايات العجيبة . ففي استراحات الطرق العامة ، مثلما كان الامر في محلات استبدال أحذية البهائم القديمة ، لا ينقطع السائقون المجربون ، الذين يبدون انهم لا يؤمنون بشيء ، عن رواية الاحداث الماورائية لمهنتهم . وخصوصاً ما يحدث منها في عز النهار ، بل وفي الدروب المطروقة اكثر من سواها . في صيف عام ١٩٧٤ ، وفيما انا مسافر مع الشاعر الفارو موتيس وزوجته على الطريق ذاته الذي ظهرت عليه السيدة ذات الملابس البيضاء ، رأينا سيارة صغيرة تخرج من رتل السيارات الطويل المتوقف بسبب الازدحام ، وتتقدم نحونا من الاتجاه المعاكس بسرعة جنونية . تمكنت من تفاديها بصعوبة شديدة ، لكن سيارتنا طارت في الفضاء ، وهوت في قاع الحفرة التي إلى جانب الطريق . وقد تمكن عدة شهود من تثبيت صورة السيارة الهاربة في مخيلتهم : كانت سيارة بيضاء اللون ، من طراز سكودا ، وقد سجل رقم لوحتها ثلاثة شهود مختلفين . قدمنا الشكوى المناسبة في مفوضية شرطة الس آن بروفانس ، وبعد بضعة شهور ثبت للشرطة الفرنسية دون مجال للشك ، ان سيارة السكودا البيضاء ، ذات اللوحة المذكورة، موجودة بالفعل . ولكن ثبت لهم كذلك انها كانت ساعة وقوع الحادث في أقصى فرنسا من الجهة الاخرى ، محفوظة في مرآب ، بينما كان صاحبها وسائقها الوحيد يحتضر في مستشفى قريب .

من هذه التجربة ، وغيرها كثير ، تعلمت ان احترم الطرق العامة احتراماً أقرب الى الخشوع . ومع ذلك ، فإن أكثر الحوادث التي أذكرها إثارة للقلق هو ما حدث لي منذ سنوات طويلة ، في مركز مدينة مكسيكو . كنت قد انتظرت

سيارة أجرة لمدة نصف ساعة تقريباً ، عند الساعة الثانية بعد الظهر ، وكنت على وشك التخلي عن الانتظار عندما رأيت سيارة تقترب ، وقد بدت لي للوهلة الاولى فارغة الا من سائقها ، والعلامة التي تشير الى ذلك كانت مرفوعة أيضاً. ولكنها ما ان اقتربت بعض الشيء حتي رأيت ، دون اي ريب ، ان ثمة شخصاً يجلس الى جوار السائق . وعندما توقفت السيارة ، دون ان أشير لها ، انتبهت الى خطأي : لم يكن يوجد اي راكب الى جانب السائق . واثناء الطريق ، رويت له عن ذلك الخداع البصري ، فاصغى إلي بكل تلقائية ، ثم قال لي : « هذا يحدث على الدوام . في بعض الأحيان أقضي النهار كله في اللف والدوران ، دون ان يوقفني أحد ، لأن الجميع تقريباً يرون راكباً وهمياً في المقعد الذي إلى جانبي » . وحين رويت هذه القصة لدون لويس بونويل ، بدت له طبيعية جداً مثلما بدت للسائق ، وقال لي انها بداية موفقة لفيلم سينمائي » .

توقف غراهام غرين في هافانا لمدة عشرين ساعة ، فقدم مراسلو الصحافة الاجنبية جميع أنواع التاويلات للحدث . وكان لا بد من ذلك : فقد وصل على متن طائرة خاصة ، قدمتها له الحكومة النيكاراغوية ، وكان يرافقه خوسيه دي خيسوس مارتينث ، وهو شاعر وأستاذ رياضيات بنَمي ، كان واحداً من أقرب المقربين الى الجنرال عمر توريخوس . وقد استقبلهما في المطار موظفون من المراسم ، وجرى ذلك وسط تكتم شديد ، بحيث لم يعلم اي صحفي بأمر الزيادة الا بعد ان انتهت . وقد نقل كلاهما الى بيت مخصص لكبار الضيوف ، وخصوصاً لرؤساء البلدان الصديقة ؛ ووضعت تحت تصرفهما سيارة مرسيدس بنز سوداء مهيبة ، من تلك التي استخدمت في الاجتماع السادس لقمة بلدان عدم الانحياز ، قبل تسع سنوات . والحقيقة انهما لم يستخدما السيارة ، لأنهما لم يخرجا من البيت الذي زارهما فيه بعض الاصدقاء الكوبيين القدماء ممن علموا بخبر الزيارة ، لأن الكاتب نفسه أخبرهم بذلك . أما الرسام رينيه بورتوكاريرو ، الذي تربطه بغراهام غرين صداقة ترجع الى الزمن الذي جاء فيه الكاتب الى هافانا لدراسة أجواء روايته (رجلنا في هافانا)، فقد تلقى الخبر متاخراً ، وحين جاء لزيارة الكاتب ، كان هذا قد غادر عائداً من حيث اتى . لم يكد ياكل سوى مرة واحدة خلال تلك الساعات

العشرين، ملتقطاً لقيمة من كل طبق ، مثل عصفور مبلل ، لكنه تناول وهو على المائدة زجاجة كاملة من نبيذ اسباني احمر جيد ، واستهلك خلال اقامته الخاطفة في البيت سبع زجاجات من الويسكي .

وعندما مضى ، تركنا مخلفاً في ذهننا انطباعاً غريباً بانه هو نفسه لا يعرف سبب مجيئه ، مثلما قد يحدث فقط لأحد شخصيات رواياته المعذبة من تردد الرب .

ذهبت اليه في بيته بعد ساعتين من وصوله ، لأنه اتصل بي فور علمه باني موجود في المدينة ، وقد سعدت بذلك سعادة كبيرة ، *ليس للتقدير* القديم والكبير الذي اكنه له ككاتب ، وكإنسان وحسب ، وانما لأن سنوات طويلة قد انقضت منذ التقينا آخر مرة . كان ذلك اللقاء الأخير - كما يتذكره هو نفسه - حين سافرنا معاً الى واشنطن ، ضمن الوفد البنمي للتوقيع على اتفاقيات القنال . وقد ذهبت بعض الصحف يومها الى القول ان دعوتنا كانت مناورة من توريخوس لتزيين وفده بإسمي كاتبين مشهورين لا علاقة لهما بتلك المهمة .

الحقيقة انه كانت لنا نحن الاثنين علاقة بمفاوضات الاتفاقية اكثر مما تظنه الصحافة بكثير . ولكن ليس لهذا السبب ولا ذاك دعانا الجنرال توريخوس لمرافقته الى واشنطن ، وإنما لأنه لم يستطع مقاومة إغراء الاقدام على السخرية سخرية حميمة من صديقه الرئيس جيمي كارتر . القضية وما فيها هي ان غراهام غرين ، وانا كذلك - مثلنا مثل كتّاب وفنانين آخرين كثيرين في العالم - ممنوعان من دخول الولايات المتحدة منذ سنوات طويلة لأسباب لم يستطع حتى الرؤساء انفسهم ان يجدوا لها تفسيراً على الاطلاق . كان الجنرال توريخوس قد وعد بحل هذه المشكلة ، فطرح القضية على عدد كبير من كبار الموظفين الامريكيين الذين كانوا يزورونه في ذلك الوقت ، ثم نقلها في آخر الأمر الى

الرئيس كارتر بالذات ، الذي ابدى استغرابه ووعد بحل المسألة باقصى سرعة . لكن فترة رئاسته انتهت دون ان يتمكن من تقديم اي رد . وحين كان توريخوس يشكل الوفد للذهاب الى واشنطن ، خطرت له فكرة إدخالنا - انا وغراهام غرين - الى الولايات المتحدة تهريباً . كان الامر هاجساً بالنسبة له : فقبل ذلك بزمن قصير ، اقترح على غراهام غرين ان يتنكر بزي كولونيل من الحرس الوطني البنمي ، ويذهب الى واشنطن في مهمة خاصة لدى الرئيس كارتر ، وذلك لمداعبة هذا الأخير بإحدى مداعباته المعتادة . لكن غراهام غرين ، الاكثر رصانة مما يبدو عليه في بعض كتبه ، لم يشأ إعارة جسده المجيد لحادث ، لو انه وقع لكان دون شك واحداً من أطرف الأحداث في مذكراته . ومع ذلك ، حين عرض علينا الجنرال توريخوس حضور مراسم توقيع الاتفاقيات بهويتنا الصريحة ، ولكن بجوازات سفر بنمية رسمية وكاعضاء في وفد هذا البلد ، وافقنا كلانا على الامر بشيء من الفرح الطفولي . وهكذا وصلنا معاً الى قاعدة اندروس العسكرية . كنا نرتدي سراويل رعاة البقر ، والقمصان الخفيفة وسط وفد كاريبي يرتدي أعضاؤه الملابس السوداء ويخيم عليهم الذهول من فرقعة قذائف المدفعية الترحيبية الاحدى والعشرين ، ومن الموسيقى الحربية للنشيد الوطني الامريكي ، والتي بدت وكأنها جزء من الدعابة . وقد همس غراهام غرين في اذني ونحن نهبط سلم الطائرة ، وكان مدركاً للشحنة الأدبية التي تحملها تلك اللحظة : « رباه ، ياللأشياء التي تحدث للولايات المتحدة » . ولم يستطع كارتر نفسه الا أن يضحك مبدياً اسنانه البراقة الشبيهة بأسنان المعلنين في التلفزيون، حين حدثه الجنرال توريخوس عن لعبته الماكرة .

بعد كل تلك السنوات عدت للقاء غراهام غرين المتجدد الشباب ، والذي ما يزال وضوحه الذهني هو اكثر صفاته مفاجاة وثباتا ، وتحدثنا كالعادة ،

قليلا من الحديث في كل امر ، لكن اكثر ما لفت انتباهي هو النبرة الساخرة التي كان يشير بها الى المحاكمات الأربع التي عليه مواجهتها في محاكم فرنسية مختلفة ، وذلك بسبب الكتيب الاتهامي الذي نشره ضد مافيا مدينة نيس. ان من يعرفون العالم السفلي للشاطىء الأزرق الفرنسي ، يدركون ان ما كشف عنه غرين لا يعلن شيئاً جديدا ، لكننا نحن اصدقاءالكاتب ، كنا قلقين على حياته . اما هو ، فلم يتاثر ، بل واصل حملته التشهيرية ، وقال : « اذا كنت ساموت بسرطان البروستات ، فإنني أفضل الموت برصاصة أتلقاها في راسي» . وقد قلت ذلك في ذلك الحين ، ولست اذكر اين ، ان غراهام غرين يلعب بحملته تلك لعبة الروليت الأدبي ، مثلما لعب في شبابه بمسدس من طراز سميث، عيار ٢٣ ، كما روى في مذكراته . وقد تذكر هو تصريحي هذا خلال الزيارة ، واتخذ منه نقطة انطلاق ليروي لنا تفاصيل محاكماته الاربع .

وفي حوالي الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ، جاء فيدل كاسترو لزيارته . لقد تعارفا منذ بداية الثورة ، منذ بدايتها المبكرة ، حين حضر غراهام غرين تصوير فيلم (رجلنا في هافانا) ، وقد التقيا بعد ذلك عدة مرات ، خلال رحلات غراهام غرين المتتالية ، ولكنهما لم يلتقيا على ما يبدو في الرحلتين الاخيرتين ، لان غراهام غرين قال حين تصافحا : « لم نلتق منذ نحو ست عشرة سنة ». بدا لي انهما هائبان بعض الشيء ، ولم يكن من السهل عليها بدء الحديث ، لذلك سالت غراهام غرين عن حقيقة حادثة الروليت الروسي التي يرويها في مذكراته . شعّت عيناه الزرقاوان – وهما اكثر العيون الزرق التي اعرفها صفاءً – وقال : « حدث ذلك وانا في التاسعة عشرة من عمري ، حين احببت مُدرّسة أختي » . وروى أنه قد لعب فعلاً في ذلك الحين لعبة الروليت الروسي بمسدس قديم لأخيه الأكبر ، وفعل ذلك في اربع مناسبات مختلفة .

كان يفصل بين المرتين الأوليين مدة اسبوع تقريباً ، أما المرتان الاخريان فكانتا متتاليتين لا يفصل بينهما الا دقائق معدودة ، فساله فيدل كاسترو الذي لا يستطيع المرور مروراً عابراً على أمر كهذا دون أن يستنزفه حتى ادق تفاصيله ، ساله : كم طلقة كانت تتسع طاحونة المسدس . فاجابه غراهام غرين : « ست طلقات » . حينئذ اغمض فيدل كاسترو عينيه وراح يهمس أرقاماً مضروبة ببعضها بعضاً ، ثم نظر اخيراً الى الكاتب وقال له : « استناداً الى حساب الاحتمالات ، يجب ان تكون ميتاً » . ابتسم غراهام غرين بالهدوء الذي يبتسم به جميع الكتّاب حين يشعرون انهم يعيشون حدثاً من أحداث كتبهم ، وقال : « لحسن الحظ انني كنت كسولا في الرياضيات دوماً » .

وربما لأن الحديث كان يدور حول الموت ، سرعان ما انتبه فيدل كاسترو الى بنية الكاتب المتينة وجسمه السليم فساله اية تمارين يمارس ، وكان سؤالاً لا يمكن ان يفوت فيدل كاسترو الذي يعتبر التربية البدنية احد الامور الاساسية في الحياة ، فهو يمارس التمارين الرياضية لعدة ساعات كل يوم ، وبالنسب الكبيرة ذاتها التي يمارس بها جميع مهامه ، وهو ينصح جميع اصدقائه باتباع نظام تمارين مماثلة . انه يتمتع بصحة بدنية استثنائية بالنسبة لرجل في مثل سنه ، وهو يعزو اليها حسن سلامته الذهنية ، ولهذا فوجيء كثيراً عندما رد عليه غراهام غرين قائلاً إنه لم يمارس أية تمارين في حياته على الاطلاق ، وانه رغم ذلك يشعر بصفاء ذهني تام ولا يعاني اية اضطرابات صحية وهو في التاسعة والسبعين من العمر ، وكشف كذلك عن انه لا يلتزم باي نوع من الحمية الغذائية الخاصة ، وانه ينام من سبع الى ثمان ساعات يومياً ، وهو امر مفاجيء بالنسبة لعجوز ذي عادات ثابتة ، وقال إنه قد يشرب في بعض الاحيان زجاجة كاملة من الويسكي في اليوم ، وليتراً من النبيذ مع كل وجبة

طعام ، دون ان يعاني مطلقاً من عبودية الإدمان على الكحول .

ولبرهة ، بدا على فيدل كاسترو انه اخذ يرتاب بفعالية نظامه الصحي ، لكنه سرعان ما ادرك ان غراهام غرين هو استثناء عجيب ... استثناء وحسب . وعندما ودعنا بعضنا بعضاً ، كان قد بدا يؤرقني اليقين بأن ذلك اللقاء سيذكر عاجلاً او آجلاً ، في كتاب مذكرات واحد منا ، او ربما في مذكراتنا نحن الثلاثة.

الولايات المتحدة الامريكية

بابها مغلقاً خير منه مواربا ً

منذ نحو ثلاث وعشرين سنة ، ذهبت برفقة مرثيدس وابنينا الى مدينة نويفو لارويدو الحدودية ، حيث يوجد جسر معدني تستند احدى ركيزتيه على الاراضي المكسيكية ، بينما تستند الركيزة الاخرى على أرض الولايات المتحدة . وقد اجتاز الثلاثة الجسر الى الجانب الآخر للحصول على تاشيرة عودة الى المكسيك ، لأن صلاحية تاشيرات إقامتهم كانت منتهية ، وكانت تاشيرة اقامتي منتهية الصلاحية كذلك ، لكنني لم استطع مرافقتهم الى الجانب الآخر ، لأن الولايات المتحدة رفضت ان تمنحني حتى مجرد تصريح لمدة ثلاث ساعات أجتاز خلالها الجسر كان انتقال الناس من جانب الى آخر متواصلا ًوكثيفا ً ، كما هو الحال في جميع حدود العالم تقريباً . فهناك كثيرون ممن يعيشون في جانب ويعملون في الجانب الاخر ، وهؤلاء معروفون لموظفي الجانبين ، لدرجة انهم لا يطلبون منهم ابراز وثائق اثبات الشخصية . لكن مراكز الهجرة والجمارك في كلا الجانبين كانت تبدي التشدد تجاه المجهولين ، وخصوصاً من هم غير مكسيكيين ، لذلك لم افكر حتى بمجرد محاولة اقناع احد هناك بضرورة مغادرتي وعودتي ، بل جلست على مقعد خشبي مقابل الجانب المكسيكي من

الجسر ، وتأهبت لقراءة رزمة من المجلات باللغتين ، ريثما ترجع اسرتي من تلك الرحلة الغريبة الى الخارج . وقد كان غيابهم لوقت اقصر مما كنا نتصوره جميعنا . ولكن قبل عودتهم ، حدث شيء لا يمكن لي ان أتناساه في مذكراتي . فقد رغبت مرثيدس في ان تحضر لي معها كنزة كهدية ، ولكنها لم تحسم أمر اللون الذي ستختاره ، لذلك وقفت امام باب دكان في العالم الآخر وراحت تعرض علي من هناك نماذج من الكنزات المتوفرة لديهم ، الى ان اشرت لها بيدي الى الكنزة المرغوبة . انني احتفظ بهذا الحادث مسجلاً بوضوح في ذاكرتي ، ليس لانه حادث فريد ومسل فقط ، وانما لأني وجدت فيه نموذجاً جيداً للبعد المضحك الذي قد توصلنا اليه احياناً حماقة الاخرين .

كانت تلك هي المرة الاولى التي ترفض فيها الولايات المتحدة منحي تاشيرة دخول . ومنذ ذلك الحين ، صارت كل زيارة اقوم بها الى تلك البلاد - بتصريحات مؤقتة او مشروطة - مصدراً لاحداث غريبة . وأقول بادىء ذي بدء انني لم اعرف السبب الذي جعلني غير مقبول لدخول الولايات المتحدة . ففي سنة ١٩٥٩ ، حين طلبت في بوغوتا التاشيرة لأول مرة كي اعمل مراسلا لوكالة الانباء الكوبية في نيويورك ، منحوني على الفور بطاقة مقيم . وقد تمتعت بتلك البطاقة لمدة سنة تقريباً ، الى ان تركت العمل في الوكالة وجئت الى المكسيك . وقد اهتدى الى مكان وجودي ، وبلا صعوبة ، موظف من سفارة الولايات المتحدة في المكسيك ، وطلب مني اعادة بطاقات الاقامة الخاصة بجميع افراد اسرتي . لقد فوجئت بالكفاءة التي توصلوا بها الى معرفة عنواني ، تماماً مثلما فوجئت فيما بعد ، بعجزهم عن الوصول الى العنوان ذاته ليعيدوا الي الدولارات المتبقية لي بعد تصفية الضرائب الاخيرة التي اجريتها في نيويورك .

لقد باءت بالفشل جميع الجهود التي بذلتها خلال عشر سنوات

للحصول على سمة الدخول ، او ليفسر لي احد سبب عدم شرعيتي على الاقل . لقد ظن احد اصدقائي يوما انه توصل الى حلّ رموز الشيفرة السرية للسفارة التي كان يعمل فيها ، وقال لي ان سبب منعي من دخول الولايات المتحدة هو : اعمال ارهابية في الكاميرون . لم يفاجئني ذلك لأني معتاد على هذا النوع من الهراء ، رغم اخذي بعين الإعتبار اني عدو معلن للارهاب ، واني لم أذهب مطلقاً في حياتي الى الكاميرون . ومع ذلك ، فإن السبب الرسمي الذي كرره على مسامعي مرات ومرات ، عدد كبير من القناصل خلال سنوات عديدة ، هو السبب ذاته ، كما نسبت اليّ مسؤوليات مختلفة بإنتمائي حالياً ، او فيما مضى، الى حزب شيوعي او منظمة موالية للشيوعية . ولو كان هذا صحيحاً ، لما كان لدي ما اندم عليه ، ولكن القضية انني لست كذلك . فانا لم انتم مطلقاً الى اي حزب كان .

المرة الاولى التي وافقوا فيها على منحي تاشيرة دخول لمدة اسبوع ، تقتصر اقامتي خلالها على جزيرة مانهاتن ، كانت في عام ١٩٧١ ، حين منحتني جامعة كولومبيا في نيويورك درجة دكتوراه شرف في الآداب . لكن سعادتي الكبيرة بالعودة الى نيويورك اصطدمت بحادث طريف ومؤسف في الوقت ذاته ، فوزارة الخارجية الامريكية ، ولخشيتها من اقدام سلطات الهجرة في مطار نيويورك على تصرف غير لائق ، يمكن له ان يثير ضجة في الصحافة ، بعثت احد موظفيها من واشنطن ، ليستقبلني في الساعة الثامنة ليلاً في المطار ، ثم يرافقني الى الفندق ، ويرجع بعد ذلك فوراً الى واشنطن ، في أول طائرة ، ليكون في مكتبه في اليوم التالي . الشيء الوحيد الذي لم يكن في الحسبان ، هو ان طائرتي لم تكن قادمة من فرانكفورت ، وإنما من بارانكيلا (كولومبيا) ، وانها لن تصل في الساعة الثامنة ليلاً ، وانما في الرابعة فجراً .

وجدت الرجل المسكين منهوكاً من الجوع والسهر ، بعد ان قرأ ثلاث مرات ، اثناء انتظاره ، ترجمة انكليزية لروايتي :(ليس لدى الكولونيل من يكاتبه) . وكان قد سعى للحصول عليها ليعرف على الاقل ، من هو هذا الشخص الذي سيستقبله في المطار ، وما هي كتاباته . عند الفجر ، وبعد ان اوصلني الى الفندق ، اردت ان اكتب له اهداء على الكتاب ، فاعترف لي بخجل ان الكتاب مستعار من مكتبة متجوله ، وانه لا يمكن كتابة اي شيء على صفحاته، وانطلق خارجاً في محاولة للحاق بطائرة تغادر في الفجر ، وتمكنه من الوصول الى مكتبه في الوقت المناسب ، وتركني اعاني مرارة افسادي ليلة كاملة لموظف عمومي مسكين ، سيء الأجر ولا يتمتع باي قدر من روح الدعابة ، ولا علاقة له بحماقات البيروقراطيين الذين لا يجرؤون على منحي تاشيرة كاملة ، ولا يجرؤون على حجبها عني كاملة .

من اكثر الاشياء التي أحبها في « الغرينغويين » ، هو احساسهم الواعي بالذنب . فهم يعيشون في شباك هذا الاحساس ، ويمكن ملاحظته ذلك بوضوح في هذه المشكلة التي خلقوها هم انفسهم ، بتأشيراتهم للكتّاب والفنانين الامريكيين اللاتينيين . ولديّ أصدقاء لا حصر لهم محظور عليهم دخول الولايات المتحدة . فخوليو كورتازار ، الذي كانت لديه دعوات دائمة من الجامعات والهيئات الثقافية الامريكية الاخرى ، كان يخضع نفسه لكل انواع التقلبات كلما فكر بتلبية دعوة لتلك البلاد . ومع ذلك ، فإن التهمة التي يمكنهم ان يوجهوها اليه – فضلاً عن كونه كاتباً يفكر برأسه – هي انه كان مناصراً على الدوام للثورة الكوبية ، وأصبح نصيراً كذلك للعملية الثورية النيكاراغوية فيما بعد . وكارلوس فوينتس الذي يعلن صراحة عن افكاره السياسية بنفسه كلما وجد الى ذلك سبيلاً ، ويفعل ذلك حتى في الولايات المتحدة ذاتها ، هو

شخص غير مقبول ، ويمنح تصريحاً مؤقتاً ولأجل محدود جداً . ان الكتاب والفنانين والاساتذة الجامعيين الاميركيين اللاتينيين الذين هم ضحايا نظام التفرقة كثيرون . فهم يسمحون لنا بالدخول الى الولايات المتحدة عندما نذهب لتقديم بعض الخدمات ، أما سوى ذلك ، فإنهم يرفضون منحنا التاشيرة متذرعين بالحجة البالية عن وجود علاقات بالشيوعية .

وفي هذا المنحى ، فإن قضية الناقدة الفنية الارجنتينية مارتا ترابا ، والاستاذ والناقد الارغوايي إنخل رامايشكل فضيحة خاصة جداً . فبعد ان خدما لسنوات طويلة في جامعة ميريلاند ، ابلغا دون مواربة بوجوب مغادرتهما البلاد . وعرضت على انخل راما اكثر الخيارات إذلالاً : ان يستانف القرار بالادلاء بتصريح علني يتبرأ فيه من ميوله الشيوعية المزعومة . اما مارتا ترابا ، فقد حظر عليها حتى مثل هذا الخيار .

ان هذا كله لا يبدو لي سخيفاً وحسب ، بل وغير معقول كذلك : فإذا كانوا يمنعون دخولنا ، فإن المنطق يستدعي منهم ان يمنعوا كتبنا كذلك . ولو ان المواهب الخفية في وزارة العدل الامريكية فكرت بالامر مرتين ، لتوصلت الى ما كان هتلر قد اكتشفه من قبل ، وهو ان الكتب اشد خطورة من مؤلفيها .

وكون هذا الامر لا يهم حكومة الولايات المتحدة ، فإنه يجعلنا نفكر بان منعنا من الدخول ليس عملاً للدفاع عن المجتمع الامريكي ، كما يدعي حكامه ، وانما هو مجرد عقاب امبراطوري ضد من ينتقدون اولئك الحكام .

كثيراً ما قلت إن قلبي لا يتحمل مشاركتي في دفن اصدقائي . ولكنني في الثاني من شهر تشرين الثاني الماضي ، وهو يوم جميع الموتى ، أردت مرافقة زوجة شخص عزيز جداً لحضور مراسم احراق جثته . كان الجسد قد امضى تلك الليلة في النزل الجنائزي التابع لوكالة غايوسو لدفن الموتى ، في جادة فيلكس كويفاس بمدينة مكسيكو . وكانت الوكالة المذكورة قد انجزت جميع المعاملات الخاصة بالاحراق والنقل الأخير الى محرقة أجساد الموتى . كان الموعد المحدد هو الساعة الحادية عشرة صباحاً ، وجميعنا كنا نظن ان العملية ستكون مجرد امر تقني ، بلا طقوس من اي نوع ، ويمكن لها ان تستغرق نحو ساعتين . عندما وصلنا الى المكان ، أرونا جثثاً أخرى تنتظر الدور ، وقالوا ان جثة صديقنا ستنتظر حتى الساعة الخامسة مساء على الاقل. في صالة الانتظار الكئيبة والمثلجة ، التي لا وجود فيها لوردة واحدة ولا لمقعد بائس واحد يمكن الجلوس عليه ، كانت توجد مجموعة من التوابيت المستعملة ، مصفوفة على الجدار بوضع عامودي ، وكانت تلك التوابيت قد استخدمت ممن اتخذوا الاحتياطات وماتوا مبكرين . فقد باعتها وكالات الدفن واستخدمت للسهر على الموتى ولنقلهم ، انما كان واضحاً ان الاقرباء الذين دفعوا ثمنها ذهباً ، لم يعودوا بحاجة اليها ، لذلك كان هناك من سيتولى بيعها ثانية الى موتى

مستقبلين . قال لنا سائق العربة التي حملت جثمان صديقنا : « لماذا لا ترجعوا غداً وتحاولوا ان تكونوا اول من يصل ؟ » . ان هذا السؤال وحده ، الذي صاغه شخص يعرف دون ريب خيراً منا مآسي البيروقراطية الماتمية ، جعلنا ندرك نوعية اليوم الذي ينتظرنا .

تولت الأمر آنا ماريا بيكانيناس ، وروت تلك التجربة للصحافة في رسالة يجب الا تمر مرور الكرام ، لأنها ليست الا عينة صغيرة من الخذلان الذي يجد فيه الأحياء انفسهم أمام الوكالات الجنائزية ، بعد ان يكونوا قد دفعوا نفقات الخدمة كاملة . ومنذ بضعة شهور ، روى فيرناندو بينيتس لاحدى الصحف كذلك، كيف عاملت وكالة غارسيو اسرة كاتب لم تكن تملك المال لدفع تكاليف الجنازة ، وهي نفقات ربما تكون اكبر من كل ما تقاضاه الصديق الميت طوال حياته من حقوق التاليف . كما اهتمت مجلة (الهيئة الوطنية للمستهلك) ، وفي عدة مناسبات ، باسعار الموت الباهظة في المكسيك ، لكن موعظتها ، مثل غيرها من المواعظ حول موضوعات فانية ، ضاعت الى الأبد في البرية . حتى لكان وكالات دفن الموتى في العالم باسره ، تتمتع بامتياز خاص يضعها بمنجى من أية عقوبة قد تتخذ ضد استغلالها .

روت آنا ماريا بيكانيناس ان الموظف الوحيد الذي وجدته في محرقة الجثث قدم لها تفسيراً واقعياً لدرجة انه بدا أقرب الى تفسير خباز ، فقد قال لها : « الفرن مشغول ، والفران في الداخل وهو لن ينتهي من « التفرين » قبل ثلاث ساعات » . ولم تكن هنالك أية معلومات اخرى .حينئذ اتصلت آنا ماريا بيكانيناس بوكالة غايوسو ، وهي تظن انها قد تحصل على مساعدةخاصة بعد ان دفعت للوكالة جميع التكاليف كاملة ، فاعلمها موظف قال ان اسمه ريكاردو لوبيث ، بان مسؤولية الوكالة تنتهي لحظة خروج الجثة من المبنى الجنائزي .

واغلق الهاتف . عادت آنا ماريا بجسارتها الكتلانية ، الى طلب الرقم ذاته ، فرد عليها عندئذ موظف آخر ، أوضح لها بصوت له نبرة أصوات تجار الموت ذات التلاوين قائلاً إنه لا يستطيع عمل اي شيء لتعجيل الاحراق . وربما دون ان يدري ، اخترع مثلاً كئيباً ، حين قال لها : « لسوء الحظ ، ان المحظوظ هو من يصل أولاً ». ولم يكن ممكنا عمل اي شيء بالفعل . أما الخدمة والمساعدة والتفهم المتعاقد عليه مع بائعي الموت ، الذين يصل بهم الامر الى الوعد بإدخال المتوفي الى السماء بصحبة أبواق ملائكية ، فقد ذهبت كلها أدراج الرياح .

لقد كانت تلك مأساة اخرى ، لكنها ربما كانت الأقل خطورة بين ما يحدث من مآسي في كل لحظة ، في العالم ، بسبب جشع وكالات الدفن وفظاظة قلوبها الحجرية . ففي المكسيك ، حيث تجارة الموت هي احدى اقسى التجارات واكثرها ازدهاراً ، وحيث اعتاد الاستغلال على غزو اكثر مناطق الادب الخيالي نفوراً ، تقول نشرة دعائية لاحدى وكالات الدفن : « الخدمة كلها لا تكاد تستغرق عشر دقائق او خمس عشرة دقيقة في اقصى الحدود . وهي ليست بالامر المحزن ، بل يمكن الذهاب اليها وكأن المرء ذاهب الى نزهة . والمكان جميل ، فهو ليس مدفناً تقليدياً ، وانما هو ضريح حديث ، مفروش بالسجاد ، ومزود بالانارة ، والتكييف ، وفيه أيضاً فتحات لتهوية السراديب » .

لقد قدرت هيئة المستهلك انه يوجد في المكسيك ١٩٥ وكالة دفن نظامية مسجلة ، و ١١٠ وكالات اخرى تعمل بطريقة شبه سرية . وهذه الاخيرة على وجه الخصوص محكومة بقوانين العرض والطلب الآنية ، وتدخل في منافسة وتدافع على الجثث مرعبين امام أبواب المشافي وفي ممراتها . ولكن ، حتى في جنازات الاثرياء ، فإن الوكلاء البياعين يفتقرون لأي قاعدة محددة لاسعار خدماتهم . انهم يتصرفون في أغلب الاحيان بناء على مظهر الزبون وحالته في لحظة عقد الصفقة . وسعر التابوت هو الذي يحدد نوعية الخدمة كلها ، اذ لا

يمكن الجمع بين تابوت غالي الثمن وخدمة متواضعة ، او العكس . والموت في نهاية الامر ليس الا رحلة ، مهما كانت أبدية ، والوكالات لا تجد سببا يمنعها من تنظيم خدمات الموت كما لو كانت رحلة سياحية جميع الخدمات فيها مضمونة ، بما في ذلك احتمالات الحب العابر . انها تجارة خرافية : ففي عام ١٩٧٦ ، بلغت أرباح وكالات الدفن الشرعية وحدها ، في المكسيك ، ١٧٥ مليون بيزو .

لقد جاءنا هذا المفهوم للدفن من الولايات المتحدة ، وهو امر في منتهى البساطة هناك : فأبهة الموت هي ضرورة أولية . والامريكي المتوسط لا يتمتع في أية لحظة من حياته بمستوى حياة أرقى من مستوى موته ، ولا يكون في أية لحظة أجمل مما يكون عليه وهو في التابوت : حتى ان افراد اسرته بالذات ، يصابون بالذهول لمدى مناسبة التحنيط له ، ولمدى الرقة التي يبتسم بها ، ولمظهر التفهم والمحبة التي يبديها وهو يسند رأسه الى وسادة الموت ، وربما تألموا في سرهم لانه لم يتم التوصل بعد الى امكانية تحنيط من هم قساة المعشر وهم على قيد الحياة . لكنه وهم باهظ الثمن ، تزدهر من ورائه تجارة من أقسى التجارات وأكثرها قذارة في العالم . لقد قرأت منذ سنوات عديدة حكاية مرعبة ، في كتاب مذهل ، حول التجارة الجنائزية في الولايات المتحدة . فأرملة من الطبقة المتوسطة ، انفقت كل مدخراتها لتقدم لزوجها الميت جنازة اكثر ابهة من امكانياتها الواقعية . وكان كل شيء يبدو محكماً ، الى ان اتصل بها احد موظفي الوكالة تلفونياً ليقول لها ان الجثة أطول مما هو وارد في العقد ، وانه عليها بالتالي ان تدفع مبلغاً اضافياً . لم يكن قد بقي في حوزة الارملة سنت واحد . فقدم لها الموظف حينئذ الحل بصوته الرخيم ، الذي يشبه اصوات جميع ابناء مهنته قائلاً : « في هذه الحالة ، ارجو منك ان تمنحينا تفويضاً لننشر قدمي الجثة » . لكن الارملة المسكينة وجدت كيفما اتفق المال الذي لم تكن تملكه ، كي تمنحها وكالة الدفن الرحمة وتدفن زوجها كاملاً .

في « فريجين » البلدة البحرية القريبة من روما ، مات صديقي العزيز فرانكو سوليناس ، احد افضل كتّاب السينما في عصرنا . أظن انه لم يتمكن من انهاء السيناريو الاخير الذي كان يكتبه ، والذي كان قد بدأ العمل به مع المخرج كوستا غافراس ، حول القضية المعاصرة والمؤثرة للشعب الفلسطيني الذي ما يزال بلا ارض . لقد كان على عدد من المخرجين العالميين المشهورين ان ينتظروا دورهم ليكتب لهم السيناريوهات ، واعتادوا الانتظار لفترات طويلة تضطرهم اليها التزامات فرانكو سوليناس الكثيرة . وقد كان على اية حال ، حاله فريدة في وسطه : لم يكن يقبل مطلقاً العمل في أكثر من سيناريو واحد في الوقت ذاته ، وكان يكرس له كل طاقاته وصبره اللانهائي ونقده الذاتي الصارم ، ويعمل فيه لوقت يستحيل عليه ان يقدره مسبقاً . فقد كانت سنة كاملة من العمل اليومي هي الحد الوسطي لكل سيناريو ، وكانت رائعته التي لا يرقى اليها الشك هي سيناريو فيلم (معركة الجزائر) الذي كتبه للمخرج جيلونونتيكو رفو ، كما كتب لهذا المخرج ايضاً سيناريو فيلم La queima-da وكتب لكوستا غافراس (حالة حصار) ، ولجوزيف لوسي (مستركلين) . ليست قائمة افلامه بالطويلة ، ولكنها جميعها من نوعية عالية ، وبالنسبة لذوقي ، فقد كان واحداً من الحرفيين الأكثر صرامة في مهنة من اكثر المهن صعوبة

وأقلها منفعة ، وأشدها جحوداً كذلك ، ودليلي على هذا الامر الاخير هو ان خبر موت فرانكو سوليناس مرّ دون اهتمام تقريباً ، حتى في المنشورات المتخصصة ، وقلة من اصدقائه الشخصيين ومن المعجبين ، عرفنا حقاً ما الذي فقدناه بموته.

إنها على كل حال مناسبة للتامل في مصير البقاء في الظل الذي يعانيه كتّاب السينما ، فلا أحد يعرف من هم ، اللهم الا إذا كانوا معروفين ككتّاب يكتبون في جنس أدبي آخر ، وفي مثل هذه الحالة يميلون هم انفسهم الى التفكير بان عملهم في السينما هو العمل الثانوي ... مجرد وسيلة للحصول على لقمة العيش . المجلات السينمائية تركز قبل كل شيء على المخرج - وليس ذلك دون وجه حق - وقليلا ما تتذكر انه لا بد لكل فيلم ، قبل ان يصل الى الشاشة ، من المرور في اختبار النار عبر الكلمة المكتوبة ، أي أن الكتّاب ، وليس المخرجون ، هم الذين يؤمنون القاعدة الأدبية التي يستند إليها الفيلم . وهذا للحقيقة ليس بالأمر الحسن ، سواء للأدب أو للسينما .

بعد الحرب العالمية الثانية ، عاش كتّاب السينما ربع ساعاتهم المجيدة ، حين تصدر الواجهة كاتب السيناريو سيسر زافاتيني ، وهو ايطالي واسع المخيلة وذو قلب مصنوع من نبات الأرضي - شوكي ، ألهم السينما في عصره نفحة انسانية لا سابق لها . وكان المخرج الذي حقق أفضل سيناريوهاته هو فيتوريو دي سيكا ، صديقه العظيم ، فقد كانا متطابقين لدرجة أنه لم يكن من السهل معرفة أين ينتهي أحدهما وأين يبدأ الآخر . وكانا معاً نجمي الواقعية الجديدة الكبيرين ، وفي سمائهما كانت هناك نجوم أخرى ساطعة مثلهما ، كما هو روبيرتو روسيليني ، وقد حققا معاً (لصوص الدرجات)، و (معجزة في ميلان)، و (هومبيرتود) ، وافلام اخرى لا تنسى . في ذلك الحين ، كان

الحديث يدور عن افلام زافاتيني مثلما يدور عن أفلام بيرتولوتشي : وكان الأول منهما هو المخرج . وعملياً ، كانت قليلة جداً في ذلك الزمان سيناريوهات الأفلام التي لم تمر من خلال مندفة زافاتيني المنقحة ، الذي كان اسمه يظهر في نهاية لائحة أسماء المشاركين في صنع الفيلم ، وذلك لمجرد ان الاسماء كانت ترد حسب الترتيب الأبجدي ، وقد كان غزير الانتاج ، لدرجة ان من يعرفونه في ذلك الحين يقولون إنه كان يملك أرشيفاً ضخماً ، مترعاً بمؤلفات موجزة على جزازات . وكان المنتجون الذين يفتقرون دوماً الى موضوعات لأفلامهم ، يلجاون اليه يائسين . وفي احدى المرات ، طلب منه احدهم بشكل مستعجل قصة حب ، فسأله زافاتيني بكل جدية : « أتريدها بكلب أم دون كلب؟». وهناك جيل بكامله من المتحمسين للسينما ، ذهبوا للدراسة في المركز السينمائي التجريبي في روما وهم يأملون ان يكون زافاتيني هو من يعلمهم .

لقد كان حالة استثنائية ، لأن مصير كاتب السينما في الواقع هو مجد سري في الظل ، ومن يقنع بهذا المنفى الداخلي هو وحده الذي يملك امكانية البقاء على قيد الحياة دون مرارة . ليس هناك عمل آخر يتطلب مثل هذا القدر من المذلة ونكران الذات ، بل واكثر من ذلك : فعلى كاتب السيناريو ان يعتبر نفسه عاملاً عابراً في عملية خلق الفيلم ودليلاً حياً على» الشرط التبعي الذي يقوم عليه الفن السينمائي . فما دام هذا الفن بحاجة لكاتب ، اي انه بحاجة لمساعدة فن مجاور ، لن يتمكن من التحليق بجناحيه وحدهما . هذا واحد من الحدود التي تقف في وجه الفن السينمائي ، اما الحد الآخر ، وهو اكثر خطورة بالطبع ، فإنه يتمثل في ارتباطه الصناعي ، فالمخرج نفسه ينتهي الى ان يدرك، عاجلاً او آجلاً ، انه لا يملك كثيراً من حرية التصرف ضمن اطار الابداع الضيق الذي يتيحه له المنتج من جهة ، والأشباح التي يعيره إياها الكاتب من

جهة أخرى . وانها لمعجزة ان المخرج ما يزال قادراً علي الاحساس بأنه قد توصل الى التعبير عن نفسه بعمق في هذا الزقاق المخلخل ، لهذا فإنني اشعر بالدهشة الكبرى والسعادة العظمى كلما وجدت فيلماً قادراً على جعلي أبكي ، وهذا هو ما يبحث عنه احدنا في اعماق روحه عندما تنطفيء انوار الصالة .

في ايام المقابلات الصحفية الكثيرة التي اعيشها ، هناك سؤال يتردد دوماً حول علاقتي بالسينما . وقد كانت اجابتي الوحيدة على هذا السؤال دائماً هي : انها علاقة زواج غير موفق . بمعنى انني غير قادر على العيش دون السينما وغير قادر على العيش معها ، والسينما تعاني الوضع ذاته في علاقاتها معي ، وذلك استناداً الى كمية العروض التي اتلقاها من المنتجين . ومذ كنت طفلاً ، حين كان الكولونيل نيكولاس ماركيز يصطحبني الى اراكاتاكا لرؤية افلام توم ميكس ، وفضول السينما يجيش في داخلي ، فقد بدأت مثل جميع اطفال ذلك الزمان بالمطالبة باخذي الى ما وراء الشاشة لأرى كيف هي احشاء ذلك الاختراع . وكانت دهشتي عظيمة عندما لم ار شيئاً سوى الصورة ذاتها مقلوبة ، فكان لذلك في نفسي وقع كوقع دوامة لم استطع الخلاص منها لوقت طويل . وحين اكتشفت السر أخيراً ، بدأت تعذبني فكرة اعتبار السينما وسيلة تعبير اكثر كما لا من الادب ، ولم يمكنني ذلك اليقين من النوم الهادىء لوقت طويل ، ولهذا السبب كنت واحداً من كثيرين سافروا الى روما على امل تعلم اسرار زافاتيني السحرية ، وكنت كذلك واحداً ممن لمحوه عن بعد .

كنت قد كسبت في كولومبيا ذلك الزمان معركة سينمائية ، فحين وصلت للعمل في جريدة (الاسبيكتادور) في بوغوتا ، عام ١٩٥٤ ، كان النقد السينمائي الوحيد الشائع في البلاد هو النقد المهادن ، فإذا لم يكن كذلك ، هدد اصحاب صالات العرض بالغاء الاعلان عن الافلام ، وهذا مصدر دخل

معتبر للصحف . وبمساندة المديرين في الجريدة ، الذين قبلوا المخاطرة ، كتبت في ذلك الحين الزاوية المنتظمة الاولى في النقد السينمائي ، لمدة سنة . وأصحاب صالات العرض ، الذين استقبلوا ملاحظاتي النقدية المضادة ،وكأنها جرعات من زيت الخروع ، في أول الامر ، انتهى بهم المطاف الى الرضى بها كوسيلة للتعامل مع جمهور حسن التوجيه .

ثم جئت الى المكسيك منذ اكثر من عشرين سنة ، بوهم المشاركة في صنع السينما . وحتى بعد ان كتبت سيناريوهات لم اكن اتعرف عليها فيما بعد على الشاشة ، بقيت على قناعتي بأن السينما ستكون الصمام الذي سأفلت منه اشباحي ، وقد تأخرت زمناً طويلاً ، للتوصل الى القناعة بأن الامر لن يكون كذلك . وفي صباح يوم من ايام تشرين الاول ١٩٦٥ ، وكنت مرهقاً من رؤية نفسي وعدم التعرف عليها ، جلست مقابل الآلة الكاتبة ، مثلما كنت افعل كل يوم ، ولكنني لم انهض في تلك المرة الا بعد ثمانية عشر شهراً ، ومعي الاصول الناجزة (لمئة عام من العزلة) ؛ فادركت اثناء ذلك العبور للصحراء انه ليس هناك من عمل للتحرر الفردي اروع من جلوسي وراء آلة كاتبة لإبتداع العالم .

شيخوخة لويس بونويل الشابة

السيرة الذاتية الرائعة التي كتبها لويس بونويل ، تبدا بفصل باهر عن الملكة الانسانية التي تتحكم بنا وتقلقنا اكثر من سواها : الذاكرة . ويروي « دون لويس » ان امه قد فقدت هذه الملكة تماماً في السنوات العشر الاخيرة من حياتها ، وانها كانت تقرا المجلة ذاتها مرات كثيرة بالمتعة الاولى ذاتها ، لأنها كانت تبدو لها جديدة في كل مرة . ويقول : « وصل بها الامر الى عدم التعرف على ابنائها ، وعدم معرفة من نحن ، ومن تكون هي نفسها . وكنت ادخل عليها ، فاقبلها واجلس بعض الوقت الى جانبها ، ثم اخرج واعود للدخول » . فكانت تستقبله بالابتسامة ذاتها وتدعوه للجلوس وكانها تراه لأول مرة ، ودون ان تتذكر ما هو اسمه .

ما لم يقله دون لويس ، وربما ما لا يعلمه احد علم اليقين ، هو ما إذا كانت امه واعية لمحنتها . قد لا تكون كذلك . وربما كانت حياتها تبدأ في كل

(*) ليمبوس او المطهر : هو المكان او المرحلة الانتقالية التي تبدأ بعد الموت حيث يستقر فيها من لم يرتكب « خطيئة مميتة » يستحق عليها عقاب الجحيم ، قبل انتقاله الى نعيم الله ، حسب ايمان الكنيسة الكاثوليكية .

لحظة وتنتهي في اللحظة التالية ، في ومضة وعي وبدون ألم لاختفاء ذكرياتها ... ليس ذكرياتها السيئة وحسب ، وانما ذكرياتها الطيبة ايضاً ، وهذه الاخيرة هي الأسوأ في نهاية الامر ، لانها تشكل نواة الحنين . ومع ذلك ، لم تكن هذه الاحجية هي اكثر ما فتنني في ذلك الكتاب الرائع ، وانما القوة التي دفعتني فيها الى التفكير ، للمرة الاولى ، بشئ يبقى على الدوام بعيداً عن اهتماماتنا : وأعني يقين الشيخوخة . لقد قرأت في حينه ، وبتقدير كبير ، كتاب سيمون دو بوفوار حول الموضوع - وربما كان الكتاب الاكثر دقة وتوثيقاً بين كتبها - لكنه لم يثر بي ، في اي صفحة من صفحاته ، مثل ذلك الاحساس بالكارثة البيولوجية التي يتحدث عنها لويس بونويل . ففي الستين من عمره - كما يقول - لم يعد يتذكر اسماء الاشخاص بالسهولة التي كان يتذكرها بها في السابق . ثم بدأ ينسى بعد ذلك المكان الذي ترك فيه ولاعته ، واين وضع المفاتيح ، وكيف كان اللحن الذي سمعه في مساء يوم ماطر في بياريتز . واصبح ذلك يقلقه في الثانية والثمانين ، لانه رأى فيه بداية تحول سينتهي به الى ليمبوس(*)النسيان الذي عاشت فيه امه سنواتها الاخيرة . ويقول : « لا بد من البدء بفقدان الذاكرة لكي ننتبه الى ان هذه الذاكرة هي التي تكوّن حياتنا » . ولحسن الحظ ، فإن كتاب لويس بونويل يثبت انّ ماساته لم تكن في فقدان الذاكرة ، وانما من الخوف من فقدانها .

انه في الحقيقة كتاب ذكريات ، وامتلاك القدرة على اعادة بناء الذكريات بمثل تلك الطريقة المعاشة لهو مأثرة ترفض مباشرة اي تهديد بفقدان الذاكرة الشيخوخي . ولقد قلت منذ وقت قريب لاحد اصدقائي انني استعد لكتابة مذكراتي ، فرد علي بالقول انني لم ابلغ بعد السن المناسبة لذلك . فقلت له : «اريد ان ابدأ وأنا ما أزال أتذكر كل شئ . لأن معظم المؤلفات تكتب حين لا يتذكر مؤلفوها شيئاً » . لكن هذا الكلام لا ينطبق على لويس بونويل . فدقة

ذكرياته عن اسلوب حياة القرون الوسطى في « كالاندا » ، وعن المدينة الجامعية في مدريد - التي كان لها اثر كبير في جيله - وعن مرحلة السوريالية ، وبشكل عام عن لحظات بارزة كثيرة في هذا القرن ، تؤكد انه كان دوماً في ذلك الشيخ الذي لا يهزم بذرة من الشباب لا تنطفئ ابداً . صحيح انه فقد حاسة السمع ، مما حرمه متعة الموسيقى التي لا تضاهى . وانه كان عليه ان يقرأ بمشقة ، مستخدماً عدسة مكبرة وشعاع نور خاص لان بصره كان يضمحل ، وكان يقول كذلك انه فقد الرغبة الجنسية . وقد انجز فيلمه الاخير : (هذا الشئ الغامض في الشهوة)، منذ عشر سنوات ، وقدر هو نفسه انه سيكون الفلم الاخير . مما يعني انه كان مريضاً حقاً ، وضجراً لتوقفه عن العمل ، اضافة الى احساسه بان اصدقاءه قد هجروه ، وتفكيره بالموت بشكل متزايد وأكثر حدة . لكن رجلاً كان قادراً على تحليل حياته بالطريقة التي فعلها في مذكراته ، وترك شهادة مثل شهادته عن عالمه وعصره ، لا يمكن له ان يكون ذلك الشيخ العاجز الذي ظن نفسه انه صار اليه .

ان المرء ليشعر بالسلوى حين يفكر بان الشيخوخة ليست سوى حالة معنوية . وعندما نرى مرور شيخ مثقل بروحه نميل الى الاعتقاد بأنها محن تصيب الآخرين فقط ، ونفكر - وعسى ان يكون ذلك صحيحاً - ان ارادتنا غير قادرة على منع الموت ، ولكنها قادرة على سدّ الطريق امام الشيخوخة . لقد التقيت منذ سنوات في قاعة انتظار احد مطارات كولومبيا بزميل دراسة في مثل عمري ، وكان يبدو اكبر من سنه الحقيقي بمرتين . وكانت نظرة متفحصة سريعة كافية لاكتشاف ان شيخوخته المبكرة ليست واقعاً بيولوجياً بقدر ما هي مجرد اهمال من جانبه . ولم استطع يومها كبح نفسي ، وقلت له اضافة الى اشياء اخرى كثيرة ، ان سوء حالته ليس من الرب ، وانما منه هو نفسه ، وان لي الحق بتانيبه لان اهماله لا يجعله يشيخ وحده ، وانما يجعل جيلنا كله

يشيخ . ومنذ زمن قريب ، طلبت من صديق ان ياتي الى مكسيكو . فرد علي في الحال : « لن اذهب الى هناك ابداً . لاني لم اذهب الى مكسيكو منذ عشرين سنة ، ولا اريد ان ارى شيخوختي في وجوه اصدقائي » . فادركت فوراً انه يتبع القاعدة نفسها التي اتبعها : عدم تسهيل اي سبيل امام الشيخوخة ووالدي الذي توفي عن اثنتين وثمانين سنة ، كان يتمتع بحيوية ومظهر استثنائيين وكنا ، نحن اولاده ، نعلم ان سره ضد الشيخوخة كان شديد البساطة : لم يكن يفكر بها .

ثمة استثناءات بالطبع ، استثناءات جيدة وسيئة ، والافضل في مثل هذه القضية عدم التفكير الا بالاستثناءات الجيدة . لقد كتب الكاتب الكوبي ميغيل بارنيت سيرة حياة عبد قديم . واثناء المقابلة ، تمكن بارنيت من التاكد فعلاً ان عمر ذلك العبد الشيخ هو المئة واربع سنوات التي يدعيها ، وكانت ذاكرته على خير ما يرام ، حتى لتبدو وكانها ارشيف حي لتاريخ بلاده . من جهة اخرى ، فإن الدكتور غريف ي . بيرد - الذي تستشهد به سيمون دي بوفوار - قد اجرى دراسة على اربعمئة شخص تتجاوز اعمارهم المئة سنة ، وكانت نتائجه مواسية ، فالدراسة تنتهي الى القول : « ولدى معظمهم مشاريع محددة للمستقبل ، وهم يهتمون بالقضايا العامة ، ويبدون حماساً شبابياً ، ويتمتعون بشهية متينة ومزاج شديد المرح ، ومقاومة استثنائية . انهم متفائلون ولا يبدون خوفاً من الموت » . اما فيما يتعلق بالنشاط الجنسي للمسنين ، فهناك يقين في هذا المجال ، بأن فترة مراهقة ثانية تبدأ منذ سن التسعين . ويبدو ان الشرط الوحيد في هذا الشان هو ان يكون الشخص المعني قد امضى حياته السابقة كلها نشيطاً . فلا شئ يسبب البرود مثل التواني وعدم المبالاة . ولدي صديق عمره /٨٥/ سنة ، اتهمه احدهم بانه عجوز ذو نفس خضراء لانه يحب

الفتيات ذوات الاربعة عشر عاماً . وقد كان رده ساحقاً : الفتيان الذين في الرابعة عشرة يحبونهن كذلك ، وليس هناك من يقول عنهم انهم شيوخ ذوو نفوس خضراء .

المشكلة هي ان المجتمع الذي يتكلف التقدير والاحترام ، يجعل منا شيوخاً بالقوة . ويقول مثل فلاحي : « بالهندية الاكبر سناً تجرب السهام » . ومنذ بعض الوقت ، عندما اقترحت على منتج سينمائي نقل (ليس لدى الكولونيل من يكاتبه)الى السينما ، رد عليّ مباشرة : « الشيوخ لا يبيعون انفسهم » . وفي فرنسا – حيث كانت نسبة المسنين عام ١٩٧٠ هي اعلى نسبة في العالم – تم التوصل الى اقرار التقاعد في سن الستين . انها فضيحة . وافضل دليل على عدم عدالة هذا القرار هو انه لا توجد كائنات اشد عدوانية في هذا العالم من المسنين الفرنسيين : فهم ينازعون الشباب على سيارات التكسي بضربهم بالمظلات ، ويخرقون صفوف انتظار الدور مستخدمين مرافقهم ، وهم مستعدون لاقتراف وقاحة مدمرة في اي شجار في الشارع . ولقد كنت اتساءل على الدوام اذا ما كان هؤلاء الشيوخ يعلمون انهم شيوخ . لست ادري . لكنني اعرف فقط ان رجلا في الستين من عمره ، يشعر انه ما زال في اوج الحياة ، اعطى الاسبوع الماضي لطفل في الخامسة من عمره ورقة نقدية من فئة الخمسين بيزو . فهرع الطفل سعيداً ليري اباه الورقة النقدية ، ويقول له : « لقد اعطاني اياها ذاك العجوز الذي هناك » . والعجوز الذي كان هناك ... هو انا طبعاً .

احدى حماقات انطوني كوين

« يمكن لرواية (مئة عام من العزلة) ان تكون عملاً مثالياً لمسلسل تلفزيوني من خمسين ساعة ، لكن غارسيا ماركيز لا يريد ان يبيعها » ، هذا ما صرح به لمجلة اسبانية ، الممثل انطوني كوين ، الذي اضاف : « لقد عرضت على غارسيا ماركيز مبلغ مليون دولار ولم يوافق ، فهو شيوعي ولا يريد ان ينتشر خبر تلقيه مبلغ المليون دولاراً ، لانه جاء الي بعد العشاء ، وقال لي على انفراد : كيف خطر لك ان تعرض علي هذا المبلغ من المال امام الملأ ؟ اعرضه عليّ في مرة اخرى عندما لا يكون هناك اي شاهد » .

الشيئ السيئ الوحيد في هذا التصريح ، اضافة الى كونه طفوليا ، هو انه غير صحيح . ولأن الحقيقة هي – كالعادة – اكثر تشويقاً ، فإنني اريد ان اروي القصة كما حدثت في مكسيكو ، منذ نحو عشر سنوات . فصحفيو المطار، الذين اصبحوا من اصدقائي لكثرة ما نلتقي ببعضنا بعضاً ، قالوا لي ان انطوني كوين قد اعلن الليلة الماضية ، من التلفزيون المكسيكي انه مستعد لمنحي مليون دولار ، مقابل حقوقي في نقل (مئة عام من العزلة) الى السينما . وقد قلت للصحفيين يومها ، ونشروا كلامي في كل مكان اليوم التالي ، انني مستعد لبيع حقوقي شرط الا يكون الثمن مليون دولاراً فقط ، وانما مليونين من الدولارات : مليون لي ، ومليون للثورة في اميركا اللاتينية . في ذلك الاسبوع ،

وقبل ان يلتقي بي ، ردّ عليّ انطوني كوين من خلال التلفزيون ، فقال : « انا اعطيه مليون دولار له ، اما المليون الآخر فليحصل عليه من جهة اخرى » . وقد بدا لي رده صائبا ومسليا لدرجة اني قبلت الدعوة اللطيفة التي وجهها بعض الاصدقاء لتناول العشاء مع انطوني كوين . كان عشاء ممتعاً . وكان انطوني كوين ، رغم بلوغه الثانية والستين ، ما يزال يحتفظ بحيوية مندفعة ، وبدا لي شخصا لطيفا وودوداً . وقد تحدث في كل شئ ، لكنه لم يقل كلمة واحدة عن عرضه الذي قدمه في التلفزيون ، وقد اراحني ذلك كثيرا . وكانت تلك هي المرة الاولى والاخيرة التي اراه فيها .

ما لم يعرفه انطوني كوين ابداً ، هو انه قبل زمن طويل من تقديم عرضه في التلفزيون ، كانت هناك شركة مختلطة لمنتجين من الولايات المتحدة واوروبا قد عرضت مليوني دولار مقابل حقوق نقل (مئة عام من العزلة) الى السينما . الانطباع الذي بقي لدى كثيرين من أصدقائي هو ان الممثل الكبير ، الذي تحول الى الانتاج ، انما عرض ما عرضه ليوحي مفاخراً بأنه يتقدم ورهن يديه مليون من الدولارات . ولم تكن تلك هي المرة الاولى التي يحدث لي مثل ذلك ففي نهاية الستينات ، وفي برشلونة ، ظهر في التلفزيون ناشر ، تتدلى على صدره سلسلة ساعة ، ويدخن سيجارا كوبيا ، ويحمل مليوني بيزتا نقداً - وكانت تساوي في ذلك الحين نحو ٧٠ الف دولار -، وقال وهو يلوح بالاوراق النقدية ان ذلك المبلغ هو الدفعة الاولى على الحساب ، التي يقدمها لي مقابل حق نشر كتابي التالي . وفي تلك الليلة بالذات ، كسب ذلك الناشر طبعاً ، وبالمجان ، حق عدم نشر كتابي التالي او اي كتاب آخر من كتبي .

الانكليز يرون في حديث المرء علناً عن الأبناء والمرض والمال نوعاً من عدم اللباقة . وبما انني لست انكليزيا - والحمد لله - وانما من شارع كاييه

مايور في اراكاتاكا ، فإن ما لدي من لباقة هو اقل شأنا من ذلك ، فانا احب الحديث عن ابنيّ ، لانهما مثل امهما : واثقان من نفسيهما وذكيان وجديان . واحب الحديث عن قرحتي في الاثنى عشرية ، التي لا تستكين الا عندما اكتب ، لان الاصدقاء لم يوجدوا لمشاركة احدنا حياته الطيبة فقط ، وانما للتخوزق معه كذلك . واحب ان اعلن عن الاموال التي اكسبها وعما ادفعه ثمنا لكل شئ ، لاني انا وحدي من يعرف ما يكلفني التستر على ذلك من مشقة ، وارى ان عدم اعلانه ليس عدلا . والاستثناء الوحيد في هذه القاعدة هو انني لا اتحدث ابداً عن المال مع الناشرين والمنتجين السينمائيين ، لان لدي وكيلاً ادبيا يفاوض عني وبشكل افضل مما استطيعه انا ؛ اولا : لانه امرأة ، وثانياً : لانها كتالانية . وهناك ناشرون كثيرون يمقتونها لشراستها في الدفاع عن قروش الكتّاب ، وخصوصاً الكتّاب الشباب والمعوزين ، ويوم يتوقفون عن مقتها سأبدأ بالارتياب بانها قد انتقلت الى الصف المقابل .

ان تجربتي مع المنتجين السينمائيين حول (مئة عام من العزلة)، هي من اكثر التجارب غرابة في حياتي . فهم لا يتكلمون في الغالب الا عن المال ، ولكنهم حين تدق ساعة الجد ، يصبحون جميعهم مثل انطوني كوين : فلا تجد لهم اثرا في اي مكان . انهم فصيحون ، ومترددون ، وغير متبصرين . زوجتي مرسيدس تخافهم ، لانهم يجيئون الى الموعد الاول وهم يحملون مشاريع فلكية ، فيمحقون كل ما في البار البيتي ، وكل ما في البيت من مؤنة ، ويتصلون بجميع انحاء العالم من هاتفنا الخاص ، دون ان يسألوا : بكم نحن مدينون لك ؟ ثم لا نعود نعرف اي شئ عن اخبارهم . فالايطالي باولو بيني ، زوج الجميلة روسانا شيافينو ، جاء منذ نحو ثلاث سنوات الى بيتنا في كويرنا باكا ، وهو راغب في انتاج احدى قصصي القصيرة ، باخراج روي غييرا . وقد ارسل الى هذا المخرج تذكرة الطائرة الى ريو دي جاغنيرو ، وتحدثنا جميعنا معاً في المشروع

طوال يوم احد بكامله وفي ذلك الاسبوع بالذات ، وفي مجلة فاريتي Variety الصادرة في لوس انجلوس - والتي لا يعلن فيها الا المنتجون المحظوظون - ظهر اعلان على صفحة كاملة عن الفيلم الذي سنصنعه ، وكأنه قد انجز فعلاً وقد ذهب « بيني » ومعه نسخة بالانكليزية من القصة القصيرة ، ليقترح على فرانكو نيرو القيام بدور البطولة ، ووعد ان يتصل بوكلائنا لشراء حقوق قصتي القصيرة ، وتحديد اتعاب روي غييرا . وكانت تلك هي المرة الاخيرة التي رأيناه فيها . والخبر الوحيد الذي وصلني عنه منذ ذلك الحين ، هو ما قاله لبعض الاصدقاء في روما ، من انه قد دفع لي ولروي غييرا مبلغاً محترماً من الدولارات كدفعة على الحساب ، لنبدأ العمل في السيناريو ، واننا قد سرقنا ذلك المبلغ .

اما بيلي فريدكين - مخرج ومنتج فيلمي (المُعزّم وعلاقة فرنسية -) فهو رجل مختلف لحسن الحظ ، ولكن عقليته هي عقلية جميع المنتجين الكبار . لقد حضر فريدكين الى مكسيكو منذ عدة سنوات ، حاملاً معه فكرة نقل (خريف البطريرك) الى السينما . انه شاب كامل كسب ثروة طائلة من افلامه ، وبعد ان اشترى طائرة خاصة ، كان يريد ان يهب ما بقي لديه من اموال الى المدارس العامة في بوليفيا . وكانت لديه افكار جذابة حول نقل روايتي الى السينما ، وتمكن من اقناعي بها . وفيما نحن نتحدث عن كل شئ ، روى لي ان مؤلف المعزّم ، وهي رواية من الدرجة الثانية ، قد تلقى مبلغاً متواضعا مقابل حقوقه في الكتاب ، ولكنه وافق بالمقابل على المشاركة في ارباح الفيلم ، فكسب سبعة عشر مليونا من الدولارات . وفهمت ان في ذلك نصيحة مهذبة لي ، وأخبرت وكيلتي بالامر . وعندما تحدث فريدكين معها حول حقوق مؤلف الكتاب ، قالت له اننا نوافق على الشروط نفسها ، التي عمل بها مع مؤلف المعزّم . فاتصل فريدكين بي تلفونياً ، وتخلى عن المشروع بالتهذيب ذاته الذي يؤدي به كل اعماله .

ولم اعد اعرف عنه شيئاً ، باستثناء ما قرأته في الصحف حين تزوج في باريس من جين موريه ، ثم عندما تطالقا بعد ذلك بوقت قصير .

الشخص الوحيد الذي لم يحدثني مطلقاً عن المال هو في رأيي الشخص الوحيد الذي يملكه في الواقع : واعني فرنسيس فورد كوبولا ، مخرج فيلم (العراب). اثناء عمل كوبولا في فيلم (القيامة الآن) في مانيلا ، حدثه مدير تصويره ، عدة مرات ، عن حلمه بنقل (مئة عام من العزلة) الى السينما وفي صيف ١٩٧٩ ، التقيت مع كوبولا في مهرجان موسكو السينمائي ، فدعاني لتناول العشاء بعد عدة أيام ، في مطعم صاخب وضخم جداً من مطاعم لينينغراد . تحدثنا قليلاً عن افلامه وعن كتبي ، وروى لي ما قاله مصوره عن مئة عام من العزلة ، لكنه لم يطرح في أية لحظة إمكانية نقلها إلى السينما . والشئ الوحيد الذي اثار اهتمامه حقا ، كان اخباره بان ابني الاكبر قد اجتاز دورة في الطهي الراقي بباريس . اذ ان كوبولا ، الاكول العظيم والطاهي من الطراز الاول ، سمح لنفسه حينئذ بالانقياد للالهام المفاجئ ، ودخل مطبخ المطعم مع ابني ليعدا معا الوجبة التي سناكلها . وكانت ليلة لا تنسى .

ومع ذلك ، فإن تمنعي في نقل (مئة عام من العزلة) ، او اي كتاب آخر من كتبي المنشورة الى السينما ، غير مرتبط بشذوذات المنتجين ، وانما لرغبتي في ان يكون تواصلي مع قرائي مباشراً ، من خلال الحروف التي اكتبها لهم ، بحيث يتخيلون الشخصيات كما يشاؤون ، وليس من خلال وجه ممثل مستعار على الشاشة ، وانطوني كوين ، رغم كل شيء ، ورغم المليون دولار التي يملكها ، لم يكن بالنسبة لي ولا بالنسبة لقرائي هو الكولونيل اورليانو بوينديا . وما عدا ذلك ، فقد رأيت افلاماً جيدة كثيرة ماخوذة عن روايات سيئة، لكنني لم اشاهد ابداً فيلماً واحداً جيداً ماخوذا عن رواية جيدة .

منذ اربع سنوات ، نقل الى باريس جسد الفرعون المصري المحنط رمسيس الثاني ، لاخضاعه لفحص طبي يحدد طبيعة طفيليات انتشرت فيه ، وكانت تهدد بإتلافه ، وكيفية معالجتها . ولأن الجثة كانت جثة ملك بلاد تربطها بفرنسا علاقات طبية ، فقد قام الرئيس في ذلك الحين ، فاليري جيسكار ديستان ، باستقبالها في المطار ، وسط اجراءات التشريف العسكرية . انما لم تكن هذه هي المسالة الاكثر صعوبة في فحص الجسد ، بل كانت هناك مسالة اخرى لا حل لها : فاحشاء الجثة كانت مملوءة بنوع من النشارة المصنوعة من مواد نباتية متنوعة ، ومن بينها ، اوراق تبغ مفرومة .

بدا ذلك الاكتشاف وكانه هذيان تاريخي . وفعلاً ، فقد مات رمسيس الثاني سنة ١٢٣٥ قبل المسيح . هذا يعني ، منذ ٣٠٠٠ سنة . والحقيقة التي يتفق الجميع عليها هي ان التبغ قد اكتشف على يد كريستوف كولومبوس ، الذي حمله الى اوروبا بعد اكتشافه اميركا . وكون فرعون قديم يحمله في احشائه ، دفع الى التفكير باحتمال ان يكون المصريون قد عرفوا التبغ ، انما ليس لتدخينه ، بل لاستخدامات طبية . وبكلمة ادق ، لتحنيط فراعنتهم الذين كانوا يعتقدون انهم سيبقون احياء طالما بقيت اجسادهم محفوظة . هذه المعلومة المذهلة التي لا اذكر اني قرأتها في الصحف ، وجدتها في معجم مثير

للفضول ومسلٍ في الوقت ذاته ، اشتريته منذ وقت قريب . اسمه منذ متى ؟، وهو عبارة عن مسرد لاصل ومنشا ثمانمئة شيء وعادة من اشياء الحياة اليومية وعاداتها ، كتبه الفرنسي بيير جيرما . لقد سمعت في احدى المرات ان الدوس هوكسلي قد قرأ، صفحة صفحة ، نحو ثلاثين مجلداً تؤلف الانسيكلوبيديا البريطانية ، ولقد حلمت على امتداد سنوات وسنوات في تكرار تلك المأثرة المنهكة والغنية ، لكنني توصلت الآن الى حل وسط منحني العزاء : فقد قرأت في ليلة واحدة ذلك المعجم عن الحياة اليومية بالتوتر والمتعة اللذين تقرأ بهما رواية غامضة .

حين كنت في المدرسة الابتدائية ، كان يلفت انتباهي ان المعلمين كانوا ينسبون الى الصينيين اشد الاشياء خيالية ، اضافة الى البارود والبوصلة . وقد تذكرت ذلك لان العلماء الذين درسوا مومياء رمسيس الثاني رأوا انه ربما يكون التبغ قد وصل الى مصر من الصين ، وانه قد يكون انتقل من هناك الى قارتنا الاميركية . ويقول معجم الاصول بالمقابل ، ان الفيزيائي العربي ابن الهيثم قد تحدث عن عدسات تصويب عيوب البصر سنة ٩٩٠ ، ولكن هذه العدسات لم تصنع للنظارات حتى سنة ١٢٨٥ على يد الزَجّاجين الايطاليين . ومع ذلك ، وربما بسبب معلومات مشوهة لقنني اياها معلمو مدرستي الابتدائية ، كنت اعتقد قانعاً بأن النظارات هي من ابتكار الصينين ايضاً . وليس في متناول يدي الآن كتاب (عجائب الدنيا) لماركو بولو ، لكنني اظن انه هو الذي قال ذلك، بعد رحلته التي استمرت عشرين عاماً في الشرق الأقصى ، وانتهت سنة ١٢٩٢.

(الولادة الأولى دون ألم)

اكثر المعلومات اثارة للفضول هي تلك المتعلقة بتطور العلوم ، والطب

منها على وجه الخصوص . من المفيد ان نعرف ان جونون ، زوجة جوبيتر كانت وهي في اولمب ، بطلة اول ولادة دون الم ، وذلك بفضل المزايا المخدرة الموجودة في الخس . ومن المناسب كذلك ان نتذكر ثانية ان عملية الولادة القيصرية لم تدعَ بهذا الاسم نسبة الى يوليوس قيصر ، كما قيل لنا مراراً وتكراراً دون الاستناد الى اي اساس ، وانها كانت شائعة في الواقع قبل ازمنة لا ترقى اليها الذاكرة ، وكانت تجرى للنساء اللواتي كن يمتن وهن على وشك الولادة ، فيتم بذلك انقاذ حياة الوليد . اما اول عملية قيصرية لامرأة حية ، فقد اجراها عام ١٥٠٠ متخصص في خصي الخنازير من شيغرهاسن ، باقليم تورغوفيا في سويسرا ، بعد ان اعلن الاطباء والقابلات في البلدة ان ولادة زوجته مستحيلة . فقام الرجل ، وكان يدعى جاكس نوفير بفتح بطنها بسكين خصي الخنازير ، ثم خاطه بخيط عادي ، دون استخدام اي نوع من التخدير ، وقد عاشت الام وابنها لسنوات طويلة .

ويروي ذلك المعجم المرح ، ان نقابة الطب في لندن قد دفعت ، في العام ١٦٦٧ ، عشرين شلناً لمجنون مقابل موافقته على ان يجروا له عملية نقل دم خروف . ولم تكن تلك هي المحاولة الاولى من هذا النوع ، لكن عمليات نقل الدم كانت قد حرمت قبل ذلك بسنوات قليلة في انجلترا ، لان قلة هم الذين كانوا يخرجون منها سالمين . ومع ذلك ، فإن المجنون لم يتمثل دم الخروف على احسن وجه وحسب ، بل ان شاهداً من ذلك العصر يقول : ان عملية نقل الدم قد حولته الى رجل مختلف تماماً .

(موانع الحمل واشياء أخرى)

احد أهم مقالات المعجم هو ذاك الذي يتناول وسائل منع الحمل ويذكر ان ثمة وصفة عثُر عليها على ورقة بردي مصرية ، هي عبارة عن مرهم يصنع من براز التمساح والصمغ العربي ، وان فعاليته كانت مؤكدة إذا ما وضع جيداً

في عمق الرحم . وقد ذكرتني تلك الوسيلة بأكثر الطرق التي وجدتها بدائية ، حين كان علي ان اضعها تحت تصرف احدى شخصياتي الروائية ، وكانت عبارة عن لبخة من الخردل ، تدخل ابخرتها في المهبل قبيل ممارسة الحب ، ويبدو ان هذه الوسيلة كانت شائعة في اميركا اللاتينية على نطاق اوسع مما يخطر لأحدنا ، وخصوصاً في أزمنة حروب الكولونيل اوريليانو بويندیا الأهلية ، وذلك بعد أربعة قرون من توصل عالم التشريح الايطالي فالوبيو الى ابتكار مانع الحمل المتقن المصنوع من احشاء الخراف .

وباختصار ، فإن معجم الاصول يخبرنا بتفصيل وظرف عمن اخترع آلة الغسيل ، واين بني اول فنار ، وفي اي بحر ابحرت اول ناقلة نفط ومنذ متى بدأ استخدام زيت البطم ، ومن هو اول رجل هبط بالمظلة ، واشياء اخرى كثيرة لا يكاد يتسع لها ترتيبه الابجدي . والكتّاب يحبون ان يعرفوا ، على سبيل المثال ، ان احدى الآلات الكاتبة التي صنعت في القرن الماضي ، كانت تدعى « بيانو الكتابة » ، وان زبونها المتحمس كان الكاتب مارك توين . وسيتساءلون دون شك - لأن المعجم لا يذكر ذلك - : ماذا جرى للآلة الكاتبة الصينية ، التي قيل منذ سنوات طويلة ان مخترعها هو الكاتب المتامرك لين يوتانغ . وسيعجبهم ان يعرفوا ان مشد الخصر (الكورسيه) المصنوع من الاسلاك الفولاذية كان شائعاً جداً في القرن التاسع عشر ، بالرغم من انه كان غير مريح وخطراً ، ويسبب الموت في بعض الحالات . ولكن لا بد من القول - كما يشير المعجم - ان نساء الولايات المتحدة لم يتوقفن عن استخدامه بسبب خطورته ، وانما استجابة لنداء وجهته الحكومة سنة ١٩١٧ ، دعت فيه النساء كي يساهمن بأسياخهن المعدنية في المجهود الوطني للحرب العالمية الاولى . وقد استعيد بتلك الطريقة ٢٨٠٠٠ طناً من الفولاذ ، كانت كافية لبناء سفينتين مدرعتين من مدرعات ذلك العصر .

كثيراً ما قيل إن أعظم الكتّاب ، في السنوات الثمانين الماضية ، قد ماتوا دون أن يحصلوا على جائزة نوبل . إن في هذا مبالغة ، لكنها ليست بالكبيرة . فليو تولستوي ، صاحب رواية (الحرب والسلام) ، التي هي دون شك، أهم عمل في تاريخ جنسها الأدبي ، قد مات سنة ١٩١٠ ، عن عمر نوبلي جداً بلغ ٨٢ سنة ، وفي وقت كانت الجائزة قد منحت فيه عشر مرات . وكان قد مضى على صدور رائعته ٤٥ سنة من المجد ، وكانت قد ترجمت الى لغات عديدة وأعيد طبعها مرات ومرات في جميع انحاء العالم ، ولم يكن هنالك من ناقد يشك في انها ستبقى خالدة الى الابد .

وبالمقابل ، فإن الكاتب الوحيد الذي بقي حياً في الذاكرة ، بين الكتّاب العشرة الأوائل الذين نالوا جائزة نوبل ، حين كان تولستوي ما يزال على قيد الحياة ، هو الانكليزي روديانغ كيبلنغ . أما أول من حصل عليها فكان الفرنسي سولي برودم ، وكان واسع الشهرة في عصره ، لكن كتبه لم تعد موجودة الآن الا في بعض المكتبات المتخصصة جداً . بل واكثر من ذلك ، فلو ان احدنا بحث عن اسمه في معجم فرنسي ، فسيجد تعريفاً موجزاً يبدو وكأنه لعبة خبيثة من ألعاب القدر : « نموذج حديث للعجز القانع والابتذال المتقن » . كاتب آخر من العشرة الأوائل المتوجين بالغار ، هو البولوني هنريك سنكويش ، الذي تسرب

خلسة الى المجد ، بوضعه لبنة في البناء بروايته الخالدة كوفاديس . وكاتب آخر هو فريدريك ميسترال ، شاعر فروفنسي كتب بلغته الاصلية ، وكان له الشرف المحزن بتقاسم الجائزة مع واحد من اكثر الكتّاب المسرحيين مدعاة للرثاء ، ممن انجبتهم اسبانيا الأم : الا وهو خوسيه اتشيغاراي ، عالم الرياضيات اللامع ، ليحفظه الرب الى جواره في مملكته المقدسة .

خلال الستة عشر عاماً التالية ، مات دون الحصول على الجائزة ، خمسة آخرون من اعظم الكتاب في كل الازمنة : هنري جيمس ، سنة ١٩١٦ ؛ ومارسيل بروست ، سنة ١٩٢٢ ؛ وفرانز كافكا ، سنة ١٩٢٤؛ وجوزيف كونراد في السنة نفسها ؛ وراينر ماريا ريلكة ، سنة ١٩٢٦ . وخلال هذه السنوات كان يحتل مقعد العباقرة ايضاً كل من ج.ك . تشسترتون ، الذي توفي عام ١٩٣٦ دون ان يحصل على جائزته ، وجيمس جويس ، الذي توفي عام ١٩٤١ ، حين كانت (اوليسيس) قد بدلت مسار الرواية في العالم ، بعد تسعة عشر عاماً من صدورها .

وبالمقابل ، فإنه لم يخلد الى الآن سوى ذكر أربعة كتّاب ، من بين الأربعة عشر كاتباً الذين حصلوا على الجائزة في تلك الفترة السيئة ، وهؤلاء الأربعة هم : الانكليزي موريس ميترلنك ، والفرنسيان رومان رولان واناطول فرانس ، والايرلندي جورج برنارد شو . اما الهندي رابندرانات طاغور ، الذي ندين له بدموع كثيرة من حلوى السكاكر ، فقد جرفته رياح اللعنة العادلة وكنوت هامسون ، البلجيكي الفائز بالجائزة لعام ١٩٢٠ حين كان في ذروة المجد فقد لقي المصير نفسه ، رغم انه أقل جدارة به . بعد ذلك بسنتين ، وقعت الأكاديمية السويدية في خطيئتها القاتلة الثانية مع اللغة القشتالية ، حين منحت الجائزة للاسباني خاثينتو بينابينتي ، ليحفظه الرب اقرب ما يمكن من خوسيه

انتشيغاراي الى ابد الآبدين . وبشكل او بآخر ، لم يكن اي من الفائزين في تلك الفترة يستحق الجائزة مثل اولئك الذين ماتوا وهم يستحقونها .

يمكن ان يكون اغفال كافكا وبروست مفهوماً . ففي عام ١٩١٧ ، حين تقاسم جائزة نوبل شخصان مرموقان ومعروفان في بيتهما - كارل غيلروب وهنريك برونتوبيدان - ، كان على فرانز كافكا ان يتقاعد من شركة التامين التي كان يعمل فيها وقد مات بعد سبع سنوات بداء السل في احد مستشفيات فيينا . وكانت روايته الرائعة : (التحول) ، قد نشرت قبل ذلك بزمن قصير في مجلة المانية . وكما هو معروف بشكل واسع ، فإن صديقه ماكس برود لم يخالف مشيئة الكاتب المتوفى الا في عام ١٩٢٦ ، حين نشر روايتين عبقريتين : (القلعة، والمحاكمة) . وفي ذلك العام ، منحت جائزة نوبل للايطالية غرازيا ديليدا ، التي احتاجت للبقاء على قيد الحياة مدة عشر سنوات بعد حصولها على الجائزة ، لكي تقتنع بالأمر .

(عدالة موضع شك)

مات مارسيل بروست ايضاً دون ان يرى مجده . ففي عام ١٩١٦ ، رفض عدد من الناشرين الجزء الاول من عمله الروائي البارز ، وكان بين اولئك الناشرين « غاليمار » ، الذي رفض نشر العمل بناء على قرار مستشاره الادبي اندريه جيد ، الذي كان - للحقيقة - الفائز المناسب بجائزة نوبل لعام ١٩٤٧ . وقد تم نشر ذلك الجزء فيما بعد على نفقة المؤلف نفسه . وفي عام ١٩١٩ نشر المجلد الثاني - (في ظلال ربيع الفتيات) - الذي حقق له شهرة سريعة ، واتاح له الحصول على اكبر امتياز ادبي فرنسي : جائزة كونكور . ولكن لا بد لنا من ان نكون عادلين : فقوى التنبؤ وحدها هي التي كانت قادرة على استشفاف

العظمة التي سيبلغها نصب عصرنا الادبي : (البحث عن الزمن المفقود) ، والتي لم تنشر كاملة الا بعد موت مؤلفها .

لقد قال لي غراهام غرين يوماً ان اشد التاثيرات في كتاباته هي التي جاءته من هنري جيمس وجوزيف كونراد ، وقد اعتبرا كلاهما من كلاسيكيي اللغة الانكليزية مذ كانا على قيد الحياة . وفي السنة التي توفي فيها هنري جيمس ، كانت جائزة نوبل من نصيب السويدي فيرنر فون هيدنستام . وفي السنة التي توفي فيها كونراد، ذهبت الجائزة الى كاتب آخر مولود في بولونيا - مثله - هو فلاديسلاف ريمون . ولم يكن اي منهما عبقرية خفية دون ريب ، مثلما هو شان اليوناني جيورجوس سيفيرس ، الفائز بالجائزة عام ١٩٦٣ ، والامريكي اسحق ب . سينغر ، الفائز عام ١٩٧٨ .

فعلى العكس من كافكا وبروست ، كان كونراد قد عاش أمجاده كلها ، فقد نشر ست عشرة رواية وعدداً كبيراً من القصص القصيرة ، كان معظمها باهراً ؛ وكان معترفاً به كاحد اعظم كتّاب عصره ، وقد اباح لنفسه ترف رفض لقب (فارس الامبراطورية البريطانية) . وعندما اكمل السابعة والستين ، كان سنه قد اصبح مناسباً للموت بإطمئنان .

لقد حصلت ماري كوري على جائزة نوبل في الفيزياء عام ١٩٠٣ ، مناصفة مع زوجها بيير ، ثم نالت وحدها فيما بعد - عام ١٩١١ - الجائزة في الكيمياء . كما تقاسم الاميركي جون بارديم الجائزة في الفيزياء عام ١٩٥٦ ، لاكتشافه تاثيرات الترانزيستور ، ثم تقاسمها ثانية عام ١٩٧٢ لدوره في تطوير نظرية المُوصلّيّة العليا . واخيراً ، فإن البروفسور لينوس كارل باولينغ ، الحائز على الجائزة في الكيمياء عام ١٩٤٥ ، كرر حيازتها في مجال السلام سنة ١٩٦٢ . اما اينشتاين ، فقد استحق جائزة الفيزياء مرتين ، ولكنهم اعطوه

اياها مرة واحدة فقط . فالمكلفون في الفصل في جدارته اتخذوا احتياطاتهم :فلخشيتهم من ان تكون نظرية النسبية زائفة ، منحوه الجائزة لاكتشافه قانون الظواهر الفوتو الكترونية .

ان الاكاديمية السويدية لا ترتكب مثل ذلك الطيش . بل على العكس : فإحدى خصائصها التي لا بد من الاقرار بها هي طبيعتها المتطرفة في صرامتها . فالاكاديمية لا تخاف من ارتكاب الاخطاء – وهي تخطئ كثيراً بالطبع – ، وتمنح الجائزة مرة واحدة فقط ، عن عمل في حياة المرء كلها . ويبدو انها ترى ان من هو متفوق في العلم لا يمكن له ان يكون متفوقا كذلك في الآداب . والتضارب الوحيد الذي اقدمت عليه – وربما لن تعود الى تكراره – هو تخصيص جائزة بعد وفاة صاحبها ، في عام ١٩٣١ ، للشاعر الاكثر شعبية في السويد ، اكسيل كارلفيلدت ، الذي كان قد توفي قبل ستة اشهر من ذلك . والامر الاكثر غرابة هو ان كارلفيلدت كان قد رفض الجائزة عام ١٩١٨ ، ونتيجة لذلك اعلن عن حجب الجائزة في ذلك العام . وما لا يستطيع احدنا تفسيره هو لماذا لم يتخذ الاجراء ذاته حين رفض بوريس باسترناك الجائزة عام ١٩٥٨ ، وجان بول سارتر عام ١٩٦٤ ، وانما استمرت الاكاديمية في اعتبارهما حائزين على الجائزة رغم انفيهما .

هناك على اية حال ، خرافة شائعة جداً بين الكتّاب تزعم ان جائزة نوبل ليست الا تكريما ياتي عند الوفاة : فمن اصل ٧٥ كاتبا فازوا بالجائزة ، لا يوجد سوى اثني عشر منهم على قيد الحياة . واعرف عددا من كبار كتّاب ايامنا لا يشعرون بمثل لهفة بورخيس لنيل الجائزة ، وإنما على العكس من ذلك يشعرون بخوف ميتافيزيقي منها ، وذلك بسبب انتشار الاعتقاد القائل انه لا احد يعيش اكثر من سبع سنوات بعد نيل جائزة نوبل للآداب . الاحصاءات لا

تؤكد ذلك ، ولكنها لا تنفيه ايضاً : فإثنان وعشرون كاتباً توفوا في غضون تلك المدة .

واسوأ مثال على ذلك قدمه الفائزون الاوائل . فسولي برودهوم مات بعد ست سنوات من نيله الجائزة . والالماني تيودور مومسين ، توفي بعد سنة واحدة . والنرويجي بجورنستجيرن بجورنسون توفي بعد سبع سنوات . اما الرقم القياسي الحالي فيحتفظ به الشاعر الانكليزي الكبير جون غالسورثي ، الذي تلقى الجائزة عام ١٩٣٢ وتوفي بعد ستين يوماً من ذلك .

اما من لا يؤمنون بالخرافات ، فلديهم بالطبع تفسير منطقي للأمر : فمتوسط العمر عند نيل الجائزة - حسب قولهم - هو ٦٤ سنة ، وبالتالي فإن موت الفائزين خلال السنوات السبع التالية هو احتمال وارد احصائيا . ويبرهنون على ذلك بسلبية الامر بالنسبة للفائزين الاصغر سناً : فروديارد كيبلنغ مثلا ، وهو اصغر الفائزين سنا ، حصل على الجائزة وهو في الثانية والاربعين من عمره ، وتوفي في السادسة والسبعين : وحصل سنكلير لويس على الجائزة وهو في الخامسة والاربعين ، وتوفي عند بلوغه السادسة والستين . اما بيرل س. باك ، المنسية تماما ، فقد فازت بالجائزة وهي في السادسة والاربعين وتوفيت في الحادية والثمانين . ويوجين اونيل ، الذي نال الجائزة وهو في الثامنة والاربعين ، توفي في الثالثة والسبعين . والاستثناء المحزن الوحيد هو البير كامي ، الذي حصل على الجائزة وهو في الرابعة والاربعين ، في اوج مجده ونبوغه ، وتوفي بعد عامين من ذلك ، في حادث السيارة التي كان يقودها قدر ربما لم يكن قدره .

ومع ذلك ، فإن الحياة تجد على الدوام طريقة ما لتكون غير منطقية . ولاثبات ذلك ، لدينا قائمة الفائزين الثلاثة الاكبر سناً : الالماني باول هيس

Paul Heyse ، الذي نال الجائزة وهو في الثمانين ؛ وبرتراند راسل ، في الثامنة والسبعين ، وونستون تشرشل ، في التاسعة والسبعين . وهيس في هذه الحالة هو الاستثناء المعكوس الذي توفي بعد اربع سنوات من نيله الجائزة . لكن تشرشل عاش احدى عشرة سنة بعد الجائزة ، وكان يدخن علبة سيجار ويشرب زجاجتي كونياك يومياً . اما برتراند راسل ، فقد حطم جميع الارقام العالمية : توفي بعد عشرين سنة من نيل الجائزة ، وكان قد بلغ الثامنة والتسعين من عمره .

لم يبد جان بول سارتر ، مطلقاً ، ما يشير الى ايمانه بأسرار هذه الارقام ، اللهم الا دليلا واحدا ؛ فحين سأله احد الصحفيين عما اذا كان نادماً لرفضه جائزة نوبل ، اجاب : « على العكس تماماً ، فقد انقذ ذلك حياتي » . لكن المثير للقلق هو انه توفي بعد ستة شهور من قوله ذاك .

في يوم ثلاثاء من عام ١٩٨٣ ، سالت عن ميرسيه رودوريدا في مكتبة من مكتبات برشلونة ، فقالوا لي انها قد توفيت الشهر الماضي . لقد سبب لي ذلك الخبر حزناً عظيماً ، اولاً : للتقدير العادل جداً الذي اكنه لكتبها ، وثانياً : للجحود الكامن في ان خبر موتها لم ينشر خارج اسبانيا بالاتساع والتكريم الواجبين . ويبدو ان عددا قليلاً من الناس ، خارج كتالونيا ، يعرفون من هي هذه المراة اللامرئية ، التي كانت تكتب ، بلغة كتلانية باهرة ، روايات مشرقة ومتينة لا وجود لكثير مثلها في الآداب المعاصرة . احدى تلك الروايات -(ساحة الديامنتي) – هي في رايي ، اجمل رواية نشرت في اسبانيا بعد الحرب الاهلية.

السبب في ان قلة يعرفونها ، حتى في اسبانيا بالذات ، لا يمكن عزوه الى انها كتبت بلغة محدودة الانتشار ، ولا لان مآسيها البشرية تدور في ركن شديدالخصوصية من مدينة برشلونة ، اذ ان كتبها قد ترجمت الى اكثر من عشر لغات . وكانت في جميع تلك اللغات موضع تعليقات نقدية اكثر حرارة مما نالته في بلادها « إنه واحد من تلك الكتب ذات المستوى الكوني التي كتبها الحب» ، ذلك ما قاله في حينه الناقد الفرنسي ميشيل كورنوت ، مشيراً الى رواية (ساحة الديامنتي). وكتبت ديانا اثيل حول الترجمة الانكليزية : « انها

افضل رواية نشرت في اسبانيا منذ سنوات طويلة » . وكتب واحد من نقاد البوبليشير ويكلي Publisher Weekly ، في الولايات المتحدة ، انها رواية غريبة ورائعة . ومع ذلك ، وفي احدى المناسبات الكثيرة ، اجري استفتاء منذ بضع سنوات بين الكتاب الاسبان المعاصرين ، للوصول الى افضل عشرة كتب ، بنظرهم ، صدرت في اسبانيا بعد الحرب الاهلية ، ولا اذكر ان واحدا من الكتاب اتى على ذكر (ساحة الديامنتي) . بينما ذكر كثيرون منهم ، وهم محقون تماماً ، كتاب (كور المتمرد) ، لارتورو باريا . لكن المثير للفضول هو ان هذا الكتاب ، الذي نشرت مجلداته الاربعة المحشوة حشواً ، في نهاية الحقبة الرابعة من هذا القرن ، في بوينس ايرس . لم يكن قد نشر - ولم ينشر حتى الان بعد - في اسبانيا ، بينما كانت طبعات (ساحة الديامنتي) قد وصلت الى ست وعشرين طبعة باللغة الكتالانية . اما انا ، فقد قرأت الرواية باللغة القشتالية في تلك الايام ، وكان انبهاري يوشك ان يقارن بذاك الذي سببته لي القراءة الاولى لرواية (بيدرو بارامو) ، لخوان رولفو . بالرغم من انه لا وجود لما يجمع بين الكتابين ، سوى شفافية جمالهما .

ولست ادري كم من المرات عدت لقراءتها منذ ذلك الحين ، بينها عدة مرات باللغة الكتالانية ، بمجهود يوضح ولعي الشديد بها .

ان حياة ميرسيه رودوريدا الخاصة ، هي واحد من اكثر الاسرار غموضاً ، في مدينة برشلونة بالغة الغموض . فأنا لا اعرف احداً كان يعرفها جيداً ، ويستطيع ان يقول لي كيف كانت بشكل مؤكد ، ولا تتيح كتبها سوى لمس حساسية مفرطة ومحبة نحو اناسها وجيرانها ، وربما كان ذلك هو السبب في ايصال روايتها الى العالمية . يعرف عنها انها امضت سنوات الحرب الاهلية في بيت الاسرة في سان خيرفاسيو ، ويبدو جليا في كتبها انها كانت روحا من

هذا العصر . ويعرف عنها كذلك انها قد ذهبت لتعيش في جنيف بعد ذلك ، وكتبت هناك جذوة اشواقها وحنينها . « عندما بدأت الكتابة كنت لا اكاد اذكر كيف هي ساحة الديامنتي » ، هذا ما كتبته في احدى المقدمات ، التي تعتبر دليلا نموذجيا على وعيها كروائية . ويمكن لاي شخص ، ما لم يكن كاتبا آخر ان يفاجأ بان الكاتبة قد توصلت الي اعادة خلق ، على ذلك الجانب من الدقة والالهام ، لاماكنها واناسها ، انطلاقا من معيشة بعيدة ، وشبه ضائعة في ضباب الطفولة . فقد كتبت في مقدمة احدى الطبعات الكتلانية تقول : « اذكر فقط انني ذهبت في احدى المرات ، وكان عمري ثلاثة عشر او اربعة عشر عاماً، لاتمشى برفقة ابي في الشوارع يوم الاحتفال بأحد الفصح . كانوا قد نصبوا خيمة في ساحة الديامنتي ، مثلما هو الحال في ساحات اخرى بالطبع، لكن الخيمة التي سأذكرها دائما هي تلك التي كانت في (ساحة الديامنتي) . فلدى مروري امام صندوق الموسيقى هناك ، تملكتني رغبة قانطة في الرقص ، وكان ابواي يمنعانني من عمل ذلك ، فرحت امشي حزينة في الشوارع المزدانة». وترى ميرسيه رودوريدا انها بتاثير ذلك الاحباط ، بدأت روايتها بعد سنوات طويلة ، في جنيف ، بتلك الحفلة الشعبية الصاخبة .

وعموماً ، فإن تلك اللهفة للرقص ، التي كان ابواها يقمعانها دوما لانها غير لائقة بالنسبة لفتاة محترمة ، اعتبرتها الكاتبة نفسها التناقض الاصلي الذي دفعها للكتابة

قليلون هم الكتاب الذين توصلوا الي تحديدات على مثل تلك الدرجة من الصواب والجدوى ، حول سيرورة الابداع الادبي في الوعي الباطن ، مثلما فعلت ميرسيه رودوريدا في مقدمات كتبها . وقد كتبت : « الرواية عمل سحري » . وعند حديثها عن (المرآة المهشمة) - اطول رواياتها - حققت كشفا آخر يكاد

يكون خيمائيا : « ايلادي فاريولس ، الذي كان ميتا ومسجى في مكتبة بيت اقطاعي ، حل لي مشكلة الفصل الاول بطريقة غير منتظرة » . وتقول في مكان آخر : « ان للاشياء اهمية كبيرة في السرد . وقد كانت لها تلك الاهمية منذ الازل ، وقبل زمن طويل من كتابة روب جرييه لكتاب البصاص (Le voy-eur)». لقد عرفت هذه التصريحات بعد زمن طويل من الابهار الذي سببته لي كاتبتها بتلك الحسية التي تجعلنا نرى بها الاشياء في هواء روايتها ، وبعد زمن طويل من انبهاري بالضوء الجديد الذي تضئ به كلماتها الاشياء . فالكاتب الذي ما زال يعرف كيف تسمى الاشياء ، يكون قد انقذ نصف روحه ، وميرسيه رودوريدا كانت تعرف ذلك بمتعة في لغتها الام . اما نحن جميع كتاب اللغة القشتالية ، فلسنا نعرف ذلك ، ويبدو الامر واضحا لدى البعض اكثر مما يخيل الينا بكثير .

اظن - ما لم تخني الذاكرة - ان ميرسيه رودوريدا هي الكاتبة الوحيدة (او الكاتب الوحيد) التي زرتها دون معرفة مسبقة ، يدفعني الى ذلك تقدير لا يقاوم . علمت من ناشرنا المشترك انها موجودة في برشلونة لبضعة ايام ، واستقبلتني في شقة مؤقتة ، مؤثثة بطريقة متواضعة جداً ، وذات نافذة وحيدة تطل على حديقة مونتيرولاس الغسقية . وقد اذهلني طبعها الساهي ، والذي وجدته مبينا فيما بعد في احدى مقدماتها : « ربما كان اكثر وجوه شخصيتي المتعددة بروزا هو نوع من البراءة التي تجعلني اشعر انني على ما يرام في العالم الذي قدر لي ان اعيش فيه » . كنت اعرف في ذلك الحين انها ، اضافة الى ميولها الادبية ، تملك ميلا آخر موازيا ، ومتسلطاً كالآخر ، وهو زراعة الزهور . تحدثنا في هذا الامر ، الذي اعتبره شكلا آخر من اشكال الكتابة ، وبين زهور وزهور ، كنت احاول ان احدثها عن كتبها ، وكانت تحاول ان تحدثني

عن كتبي . وقد لفت انتباهي انها كانت تهتم اكثر ما تهتم من بين كل ما كتبته ، بديك الكولونيل الذي ليس لديه من يكاتبه ، وانتبهت هي الى انني معجب جدا بيانصيب الكافتيريا في (ساحة الديامنتي) . ما زالت لدي اليوم ذكرى محددة وسط ضباب ذلك اللقاء الغريب ، وهي دون شك ليست من الذكريات التي حملتها معها الى القبر ، فقد كانت تلك هي المرة الاولى التي تحدثت فيها الى مبدع ادبي كان نسخة حية من شخصياته . ولم اعرف مطلقا السبب الذي جعلها تقول لي وهي تودعني عند المصعد : « حضرتك تتمتع بميل شديد الى الفكاهة». ولم اعد اعرف شيئاً عن اخبارها منذ ذلك الحين ، الى ان علمت مصادفة ، وفي ساعة شؤم ، انه قد وقع لها الحدث الوحيد القادر على منعها من مواصلة الكتابة .

مقابلة صحفية ؟

لا ، شكراً

اثناء احدى المقابلات الصحفية ، وجه الي الصحفي السؤال الازلي : «ما هو منهجك في العمل ؟ ». استغرقت متأملاً ، ابحث عن اجابة جديدة الى ان قال الصحفي انه اذا كان السؤال يبدو لي صعبا فيمكنه استبداله بسؤال آخر . فقلت : « بالعكس ، انه سؤال سهل ، وقد اجبت عليه مرات ومرات ، لذلك فإني ابحث عن اجابة مختلفة » . تضايق مقابلي لانه لم يستطع ان يفهم كيف اشرح منهجي في العمل بشكل مختلف في كل مناسبة . لكن الامر كذلك بالفعل . فعندما يتوجب على المرء ان يقدم مقابلة كل شهر ، خلال اثنتي عشرة سنة ، فإنه ينتهي الى ان ينمي في نفسه طريقة اخرى للتخيل ، كي لا تكون جميع تلك المقابلات ، عبارة عن مقابلة واحدة مكرورة .

الحقيقة ان المقابلة ، كجنس في الكتابة ، قد غادرت منذ زمن بعيد حدود الصحافة الصارمة ، لتدخل برخصة قرصنة الى غابات الخيال الروائي . لكن السيء في الامر هو ان معظم صحفيي المقابلات يجهلون ذلك ، وكثيرين من الساذجين الذين تجرى المقابلات معهم ما زالوا لا يعلمون به ايضا . ثم ان هؤلاء واولئك لم يتعلموا بعد ان المقابلات هي مثل الحب : لا بد لتحقيقها من شخصين ، وانها لا تكون جيدة الا اذا كان كل من الشخصين يحب الآخر . والا

فإن النتيجة ستكون مجموعة من الاسئلة والاجابات ، التي يمكن لها ان تنتج ابنا في اسوأ الحالات ، انما لا سبيل الى الخروج منها بذكرى طيبة على الاطلاق .

يكون المدخل للمقابلة هو ذاته على الدوام ، ويأتي عبر الهاتف بشكل شبه دائم . « لقد قرأت جميع المقابلات التي اجريت مع حضرتك ، وجميعها متشابهة » ، هكذا يقول صوت مهذب وواثق تمام الثقة من نفسه ، ثم يضيف : « ما اريد ان افعله هو شئ مختلف » . ولا جدوى من تذكيره بأن الجميع يقولون الكلام ذاته ، فضلا عن انني لا استطيع قول ذلك باي شكل من الاشكال ، لانى اعتبر نفسي على الدوام ، وقبل كل شئ ، صحفيا ، وحين يطلب مني صحفي آخر مقابلة ، اجد نفسي في زقاق مسدود : فأنا ضحية وشريك في الجريمة في الوقت ذاته . وهكذا فإنني انتهي دوما الى الرضوخ ، مبقيا على ذلك الخيط الانتحاري الذي لا خلاص منه ، والذي نحمله جميعاً في اعماقنا .

وفي اثنتين من كل ثلاث حالات ، تكون النتيجة هي نفسها : لا تأتي المقابلة مختلفة ، لان الاسئلة هي الاسئلة المعتادة . بما في ذلك السؤال الاخير : « هل تود ان توجه الى نفسك سؤالا لم يطرح عليك من قبل وترغب في الاجابة عنه ؟ » . وتكون الاجابة هي الاكثر كآبة : « لا يوجد اي سؤال »، ربما كان الصحفيون الذين يجرون المقابلات لا ينتبهون الى مقدار ما نتألم ، نحن المقابلين ، لفشلهم ، لانه ليس فشلهم وحدهم في الحقيقة ، وانما هو قبل كل شئ ، فشل لنا ، وابقى دوما ضحية الاحساس المرعب بانه في يوم الاحد القادم ، عندما يفتح القراء الجريدة ، سيصابون بخيبة الامل ، وربما بالغضب العادل ، فها هي ذي المقابلة المعتادة مع الكاتب المعتاد ، الذي صاروا يجدونه حتى في حسائهم ، فينتقلون وهم محقون تماما في ذلك الى صفحة التسالي

التي توفرها لهم العناية الالهية . وآمل الا يعود احد ، في يوم غير بعيد ، الى شراء الصحف التي تنشر مقابلات معي .

هناك صحفيو مقابلات من مختلف الدرجات ، لكنهم جميعهم يشتركون في امرين اثنين : فهم يظنون ان تلك المقابلة ستكون « خبطة » حياتهم ، ويكونون خائفين . وما لا يعرفونه - ومن المفيد ان يعرفوه - هو ان جميع المقابلين الذين لديهم احساس بالمسؤولية ، يكونون اكثر خوفا منهم . مثلما هو الحال في الحب طبعا . ولانهم يظنون انهم هم وحدهم الخائفين ، فإنهم يندفعون الى احد الطرفين النقيضين : فإما ان يصبحوا شديدي الملاطفة ، واما ان يصبحوا شديدي العدوانية . من هم من الفئة الاولى لا يفعلون في الواقع شيئا يستحق الذكر على الاطلاق . اما من هم من الفئة الثانية ، فلا يتوصلون الى ما هو اكثر من اثارة حفيظة من يقابلونه . « هذا شئ حسن » قال لي احد المختصين الجيدين بإجراء المقابلات الاذاعية ، واضاف : « اذا توصل الصحفي الى استثارة من يقابله ، فإنه يدفعه في النهاية الى الصراخ بالحقيقة وهو تحت تاثير الغضب » . هناك آخرون يستخدمون اسلوب معلمي المدارس السيئين ، بمحاولتهم دفع من يقابلونه الى الوقوع في تناقضات ، وجعله يقول ما لا يريد قوله ، بل ودفعه في اسوأ الحالات ، الى قول مالا يفكر فيه . وقد كان علي ان اقابل في بعض الاحيان مثل هؤلاء الصحفيين ، فكانت النتيجة مقابلة يرثى لها . ولكن علي ان اعترف ان مثل ذلك الاسلوب قد يؤدي في نوع آخر من المقابلات الى انفجار مبهر . وهو ما حدث منذ سنوات ، في مؤتمر صحفي حول موضوعات اقتصادية ، عقده رئيس فرنسا فاليري جيسكار ديستان . كا ذلك المؤتمر مشهدا متألقا ، حيث كان الصحفيون يوجهون اسئلتهم المتعمقة ، فيرد المسؤول عليها بدقة وذكاء وسعة اطلاع مذهلة

. وفجاة ، سال احد الصحفيين باشد ما يمكنه من التوقير : « هل تعرفون يا سيادة الرئيس ، كا هو ثمن تذكرة المترو ؟ » . وطبعا لم يكن السيد الرئيس يعرف ذلك.

(مقابلات حربية)

الاسم الذي بلغ الذروة في هذا النوع من المقابلات ، التي ربما يتوجب تسميتها : مقابلات حربية ، هو اسم اوريانا فالاشي . هناك صحفيون يظنون انهم يعرفونها - ولكنهم لا يحبونها دون شك - لديهم تحفظات حول اسلوبها . يقولون انها لا تزيف في الواقع كلمة واحدة مما يقوله من تقابله امام الميكروفون ، ولكنها بالمقابل ، ترتب حسب رغبتها تسلسل ما قيل لها ، وهي تبدل وتعدل ، بشكل خاص ، اسئلتها بالطريقة التي تناسبها . لست متأكدا من هذا ، وقد يكون من يقولونه لم يعرفوا به كذلك بانفسهم . لكنني اظن ، في نهاية المطاف ، ان هذا المنهج هو اقل اثارة للريبة من المنهج المستخدم حاليا في مجلتي « تايم » و « نيوز ويك » الامريكيتين ، اللتين تسجلان مقابلات مطولة تدوم لساعات ، ثم لا تستخدمان منها بعد ذلك سوى مادة لصفحة واحدة ، دون ان نتساءلا اذا ما كان الحذف لا يغير ، بطريقة ما ، من فحوى النص الاصلي . وعلى اية حال ، فإن نتيجة منهج اوريانا فلاشي تكون على الدوام كاشفة وأخاذة ، وشخصيات قليلة جدا في هذا العالم قاومت زهو منحها مقابلة صحفية، اما هي ، فلم يلن قلبها الا امام رجلين الامير راينر ، امير موناكو ، والمنسينور هيلديرا كاميرا . وقد اقر هنري كيسنجر نفسه ، في مذكراته ، بأن مقابلته مع اوريانا فلاشي كانت اكثر مقابلاته الصحفية كارثية على الاطلاق . ومن السهل فهم ذلك ، لانه لم يظهر في اية مقابلة اخرى مكشوفا من الداخل

والخارج ، وبكامل جسده ، مثلما ظهر في تلك المقابلة . ولم يكن بالامكان تحقيق ذلك ، بكل تاكيد ، الا بالامكانيات السحرية للراوية .

ان مقابلا جيدا ، يجب ان يكون برأيي ، قادرا على اجراء محادثة متدفقة مع من يقابله ، ثم عليه بعد ذلك ان يعيد انتاج جوهرها وفحواها ، منطلقا من بضع ملاحظات موجزة . لن تكون الحصيلة حرفية بالطبع ، لكنني اظنها ستكون اكثر امانة ، وستكون - بشكل خاص - اكثر انسانية ، مثلما كانت المقبلات على امتداد سنوات طويلة من الصحافة الجيدة ، قبل التوصل الى هذا الاختراع الشيطاني المسمى ميكروفون . اما الآن ، فإن احدنا يشعر بأن من يجرى معه المقابلة لا يستمع الى ما يقوله ، ولا يهمه ذلك ، لانه يظن ان ميكروفون آلة التسجيل يسمع كل شئ انه مخطىء : فالميكروفون لا يسمع خفقات القلب وهي اهم شيء في المقابلة . ولا يذهب بك الظن الى ان مثل تلك التعاسات تبهجني . بل على العكس : فبعد كل هذه السنوات من الاحباط ، ينتظر احدنا من اعماق روحه ان يأتيه اخيرا صحفي حياته الذي سيقابله مقابلة حقيقية . مثلما هو الحب تماما .

وهكذا اعددت حقائبي ، واسلمت روحي لنصف زجاجة من الويسكي وصعدت الى الكونكورد . كنت قد انتظرت نحو ساعتين في قاعة انتظار بمطار شارل ديغول ، في باريس ، الذي يبدو من جميع النواحي وكأنه محطة فضائية . ولم اتوقف خلال ذلك الوقت كله ولو للحظة واحدة ، عن تأمل - من خلال النوافذ الزجاجية البانورامية - ذلك الطائر الاهيف الرابض ، بجناحيه الضخمين الممدودين ، والتساؤل بين كل رشفة واخرى من الويسكي الخالص : لماذا كنت جبانا الى حد فقداني حتى شجاعة التخلي عن تلك المغامرة ؟ والى جانب الكونكورد ، كانت تمر طائرات من سلالات اخرى اكثر تواضعا ، لا يظهر من نوافذها احد يلوح بيده مودعا ، ولا يظهر احد يسكب دمعة حزن على الرصيف ، مثلما كان يحدث عند ابحار السفن في زمن اخر ، دون ان تترك لنا العزاء حتى في جؤارها الوداعي . كان قلبي ينقبض كلما انتبهت الى ان الطائرة الاكثر سرعة والابهظ تعرفة هي الاصغر حجما بين جميع الطائرات ، وان حجم نوافذها لا يكاد يصل الى حجم راحة اليد ، وان عرضها اقل من عرض اول الطائرات ذات المراوح التي اذهلت العالم في حينها . ان الدخول الى ذلك الصاروخ الاسرع مرتين من الصوت ، للوصول الى نيويورك في وقت اقل بثلاث ساعات فقط من الوقت الذي تحتاجه طائرة عادية ، ما هو الا

مجازفة شيخوخية . ومع ذلك ، فقد كنت هناك ، وسط رجال الاعمال عديمي الاحساس والمومسات الفاخرات المتالقات . دون ان تكون الحياة القاسية او الحياة اللينة قد غيرتا شيئا في اعماقي منذ تلك الظهيرة القائظة التي لا يذكر زمنها الا الله ، حين اصعدني جدي للمرة الاولى الى قطار اراكاتاكا . لقد كان الامر مشابها : فها انا الان محمول بين يدي الرعب ، وهو الجد الوحيد المتبقي لي بعد ان مات اجدادي الذين من لحم وعظم .

كان احد الاصدقاء الكولومبيين قد بين لي بجملة واحدة صاعقة ان الكونكورد هي « مثل طائرة دي - سي / ٣ ، ولكن خراء » . وليس عليّ ان اضيف او ان احذف حرفا واحدا من هذا التعريف . ان طولها اكبر بنحو اربع مرات من ذلك النوع من الطائرات ، اما ارتفاع السقف وضيق الممر الاوسط ، وحجم المقاعد فهو مثلما كان في تلك الطائرات البدائية التي كنا نجتاز بها غابات ونقفز جبالاً بسعادة الشباب اللامبالية .

اذن لم يكن سبب واحد يحمل على الخوف الان اكثر من ذلك الحين ، ما عدا الفرق الشاعري في ان ابقار الزمن الغابر كانت تتوقف عن الاكل لترى مرور الطائرات فوق المرابع ، اما الكونكورد فتبحر في سماء متوحدة ليست من سماوات هذا العالم . وبإستثناء ذلك ، فإن كل شئ كان مماثلا : الجو الداخلي، حيث يمني احدنا نفسه بانه سيدخل مركبة فضائية ، ذات جماليات مختلفة عن جماليات الطائرات الاخرى البائدة ؛ ولكنه يجد فيها جمالية طائرات المراوح الريفية التي كان المرء يقضي الليل فيها منتحبا من الوحدة . لقد قالت سيدة وهي راجعة من دورة المياه في الطائرة : « يمكنهم بالتعرفة التي يتقاضونها ان يعلقوا لوحة لبيكاسو في كل طائرة كونكورد على الاقل » . وقد فاجائتني للالهام الذي تمكنت ان تعبر به عن فكرة كنت احتاجها للتعبير عن غمي .

(ليلة ضائعة)

ان احدى اكبر الخسارات التي آلمتني وبلبلتني هي خسارة ليلة كاملة من حياتي في رحلة من لوس انجلوس الى طوكيو . لم اعد للعثور على تلك الليلة ابدا ، وكلما تذكرتها ساءلت نفسي ما عساي فعلت بها . وما ادراني ان تلك الليلة هي اسعد ليلة كانت مقدرة لي ، وانها ضاعت مني الى الابد لاني لم ابق هادئا في بيتي . الحقيقة اننا خرجنا من لوس انجلوس في يوم احد ، الساعة الثانية بعد الظهر ، ووصلنا الى طوكيو في الساعة الثانية من بعد ظهر يوم الاثنين ، بعد طيران استمر احدى عشر ة ساعة ، في نهار متواصل دون ليل . وكان اول شئ انتبهت اليه بعد ان حطت بنا الطائرة هو ان ليلة الاحد قد حذفت من حياتي ، ليس بساعاتها المعدودة ، وبسمائها ونجومها وحسب ، وانما بحلمها كذلك . وفي تلك الليلة ، في فندق طوكيو الضخم ، حيث يوقظون المرء بواسطة حاسبات الكترونية خفية تغرد مثل الطيور . لم اكن لاهتم بكل عجائب العلم تلك ، وانما كنت اشعر بنفسي تحت وطاة قلق النوم في ليلة ليست لي .

ان تشوش الاحساس بالزمن في الكونكورد هو اكثر مرارة لان المرء يخرج من باريس في الحادية عشرة صباحا ، ويصل الى نيويرك في الساعة الثامنة من صباح اليوم نفسه . وقد انتهينا ، نحن الاكثر تقدما في هذا النوع من اسرار العلم ، الى الرضى بالتشوش المتعارف عليه في الطائرات العادية ، حين يخرج احدنا في الساعة الثانية عشرة ظهرا من باريس ، ويصل في الساعة الثانية من بعد ظهر اليوم نفسه الى نيويورك ، بعد ان يكون قد طار سبع ساعات . اما ان نتناول الفطور في باريس ، ثم نعود الى تناوله في

نيويورك في اليوم والساعة نفسيهما ، فهو تعسف ترفضه الاسرار المرصودة للشعر .

ومع ذلك ، فإن هذه العجائب الفيزيائية التي نتقبلها جميعنا بشكل طبيعي - لكنني شخصيا لم اتمكن من فهمها ، رغم الشروح التي قدمها لي اصدقائي العلماء مستعينين بالارقام والرسوم - لا تعود شاعرية حين يعلم احدنا مقدار المجازفة التي يخضع نفسه لها لجعلها ممكنة . الحقيقة ان هذه الطائرة الاسرع من الصوت ، والتي هي بحد ذاتها ماثرة من مآثر الذكاء البشري ، تطير بسرعة ٢٢٠٠ كيلومترا في الساعة ، اي بسرعة تفوق ست مرات سرعة جدتها ذات المراوح . وللتوصل الى مثل هذه السرعة الدوارية ، لا بد لها من الارتفاع الى علو عشرين كيلو مترا ، حيث لا وجود لمزيد من الهواء ، وحيث درجة الحرارة الشتوية التي تصل الى ٦٦ درجة تحت الصفر ، وحيث الضغط الجوي اقل بعشرين مرة منه في البحر . ولكي يستمتع المرء بالخدمات الرائعة جدا ، ويتناول كل الشمبانيا التي يرغب في تناولها ، ويتلذذ بافضل اجبان العالم في ظروف كتلك الظروف ، لا بد لجو المركبة من ان يكون مماثلا لجو سطح البحر . اي ان يكون هناك فارق كبير جدا بين الضغط الخارجي والضغط الداخلي ، لان اي صدع بسيط غير مرئي في تلك القنبلة الاسرع من الصوت بمرتين ، سيكون كافيا لتحويل جميع المسافرين المئة الى غبار كوكبي مجيد . ولن تكون تلك هي الوسيلة الاكثر حداثة للموت وحسب ، بل ربما كانت كذلك الضمانة الوحيدة للموت جسدا ورحا الى الابد .

(انبعاث المنطاد المُسيّر)

لحسن الحظ انه كان في المجلة الوحيدة التي وجدتها في الطائرة مقال يبعث العزاء، حول احتمال بعث المنطاد المُسيّر قريباً ، والعودة الى استخدام

ديناصور عالم الطيران الضخم والوقود لأغراض تجارية ، بعد اربعين سنة من التهام النار للمنطاد المارد « هيندينبرغ » في نيوجرسي ، ومصرع ٣٦ شخصا فيه . لقد قام المنطاد (هيندينبرغ) بمئة واربع واربعين رحلة عبر الاطلسي ، ولم يكن فيه سوى عيب واحد وحيد كان السبب في كارثته : فقد كان منفوخا بالاكسجين ، وهو غاز قابل للاشتعال . اما المنطاد المُسيّر الجديد فسينفخ بغاز الهيليوم ، وهناك نموذج بريطاني منه سيدخل الخدمة ما بين لندن وباريس ، بحمولة تصل الى طنين اثنين ، وبسرعة ١١٥ كيلومترا في الساعة .ولكن هناك نموذج اميركي آخر قادر على حمل سبعمئة مسافر عبر الاطلسي ، سيكون مزودا بغرف للنوم ، وممرات فاخرة ، وصالات حفلات ، واماكن للترفيه ، انما على ارتفاع لا يزيد على ثلاثين مترا عن سطح البحر . شئ اشبه بسفينة تطير بسرعة انسانية تعادل خمسمئة كيلومتر في الساعة ، دون تعجل او مفاجآت ، وذلك لكي تصبح متعة السفر حقيقية من جديد .

لقد كان الانتقال من البغلة الى الطائرة شاقا ومريرا ، لكننا الآن نمضي على احسن ما يرام في رحلة العودة فمرة اخرى من الطائرة الي البغلة .

عدت هذا الاسبوع الى قراءة « ايام العيد س » ، رواية ثورنتون ويلدر الجميلة التي قرأتها لأول مرة منذ نحو خمسة وعشرين عاما في ترجمة متسرعة، ثم عدت الى قراءتها منذ ذلك الحين مرات عديدة ، وبالمتعة ذاتها التي احسست بها في المرة الاولى . واثناء كتابتي لرواية « خريف البطريرك » ، كنت احتفظ برواية ويلدر في متناول يدي كمصدر باهر للتدليل على عظمة السلطة وبؤسها .

ولقد اشتريت منها نسخا كثيرة ، وبلغات مختلفة لأشاطر في متعتي بها اصدقاء من العالم باسره . ولا اذكر ان احدا منهم لم ينحن امام ذلك الينبوع من الجمال . وقد عدت الى قراءتها الآن ، في وقت لا يخطر على بال : اثناء رحلة هادئة بالطائرة استمرت اربع ساعات ، ومن نسخة مستعارة . ولم اكتشف الا الآن كم كان لهذه الرواية المتقنة من اثر في حياتي .

لقد بدأ اهتمامي بأسرار السلطة اثر حدث شهدته في كاراكاس ، في الزمن الذي قرأت فيه « ايام العيد س » للمرة الاولى . ولست اذكر الآن على وجه التحديد اي الامرين حدث اولا . كان ذلك في مطلع سنة ١٩٥٨ ، فالجنرال ماركوس بيريس خيمينث ، الذي كان دكتاتوراً لفنزويلا خلال عشر سنوات ، قد فرّ الى سانتو دومينغو عند الفجر . وكان على مساعديه ان يرفعوه الى الطائرة

بواسطة حبل ، لان احداً لم يجد الوقت الكافي لوضع سلّم الطائرة . وفي عجلة الهروب نسي الدكتاتور حقيبته اليدوية التي كان يحمل فيها مصروف جيبه : ثلاثة عشر مليون دولار نقداً . بعد ساعات قليلة من ذلك ، كنا نحن جميع المراسلين الصحفيين الاجانب المعتمدين في كاراكاس ، ننتظر تشكيل الحكومة الجديدة في احد صالونات قصر ميرافلوريس الفخمة . وفجاة ، غادر المكتب الذي عقد فيه الاجتماع المغلق ، ضابط من ضباط الجيش يرتدي لباس الميدان ، ويغطي انسحابه بمدفع رشاش جاهز للاطلاق . اجتاز الصالون وهو يمشي القهقري ، وعند بوابة القصر ، صوب سلاحه الى سيارة تكسي ، حملته الى المطار ، وفر من البلاد . الشئ الوحيد الذي بقي منه اثر الوحل الطري الذي خلفته جزمته العسكرية فوق سجاد الصالون الرئيسي متقن الصنع . لقد كابدت يومها نوعاً من الانبهار : فقد ادركت بطريقة مشوشة ، وكما لو ان كبسولة محرمة قد انفجرت في روحي ، ان جوهر السلطة كله كان ماثلا في ذلك المشهد

بعد نحو خمسة عشر عاما ، وانطلاقا من تلك الواقعة ، ودون ان اتوقف عن ذكرها ، وبشكل دائم ، كتبت « خريف البطريرك » . كان نصي الاول في تعلم حل رموز اسرار السلطة هو « ايام العيد س » . والرواية كما يعرف من قرأها ، هي اعادة بناء ادبي للسنوات الاخيرة من الثورة الرومانية ولحياة دكتاتورها يوليوس قيصر بالذات .

الذريعة التي يرتفع بناء القصة حولها هي حفلة صاخبة تقيمها كلوديا بولتشير وشقيقتها على شرف رجلين بارزين : يوليوس قيصر والشاعر فاليريو كاتولو . والحفلة ليست سوى تصريح مرور ادبي ، لانه في السنة التي اقيمت فيها تلك الحفلة ، وهي سنة ٤٥ قبل الميلاد ، كانت قد انقضت ثمان سنوات على وفاة الشاعر كاتولو . لكن كاتبا كبيرا مثل ثورنتون ويلدر لا يمكن له ان

يتوقف عند مثل هذه التفاصيل العقلانية ، لانه مضى الى ما هو ابعد منها بكثير ، فالدكتاتور المتشح بافخم ملابسه وزينته في الرواية ، يغادر حفلة ضخمة تقيمها له الملكة كليوباترا في تلك الليلة ، ويذهب للسهر على الشاعر كاتولو الذي كان يحتضر في فراشه . ويقول شاهد عيان مزعوم : « وبقينا نستمع الى الاوركسترا ونتأمل السماء المضاءة بالالعاب النارية » وقد نسب الكاتب قصة ذلك السهر على المحتضر الى رسالة كتبتها زوجة كورينليو نيبوت الى شقيقتها التي ولدت بعد وفاة ابيها ، واختتمتها بالاشارة الى ان قيصراً لم يفعل شيئاً لتسلية المحتضر سوى الحديث اليه عن سوفوكليس . وتقول القصة ان «كاتولو قد مات بمرافقة جوقة من اوديب في كولونا » .

الشئ الوحيد الذي كنت قد قرأته عن يوليوس قيصر قبل « ايام العيد س » هو كتب المرحلة الثانوية التي يكتبها الاخوة المسيحيون ، ومأساة شكسبير التي فيها كما يبدو من الخيال اكثر مما تحتويه من الواقع التاريخي . لكنني بعد قراءة « ايام العيد س » ، غصت في المصادر التاريخية وفي تعليقات يوليوس قيصر نفسه ومذكراته الحربية ، وكانت جميعها تشير بالطبع الى النشاط المحموم الذي كان العرافون الرسميون يذبحون به البهائم ويتأملون في ظواهر الطبيعة ليستطلعوا المستقبل . وفي اليوم الاول من ايلول سنه ٤٥ قبل الميلاد - كما يروي ثورنتون ويلدر - تلقى الدكتاتور من عرافيه اكثر من خمسة عشر تقريراً ، يتحدث احدها عن اوز في قلبه وكبده بقع داكنه ، وعن فرخ حمام مشؤوم احدى كليتيه خارج موضعها ، وكبده متورم ، ولونه اصفر وفي حوصلته حجر كوارتز . فقال قيصر وقد شوشته الطوالع المضطربة : « انا الذي احكم كل هؤلاء البشر ، تحكمني طيور ورعود » . ولست ادري اين قرأت ان الامر انتهى به الى اغلاق مجمع المنجمين ، وكتب ضدهم كتاباً بعنوان

«التنجيم » فكان العنوان بحد ذاته قصيدة . لقد بحثت عن هذا الكتاب لسنوات طويلة ، الى ان سألت الناقد ارنستو فويكنين ، وهو الشخص الاكثر احاطة بهذا الموضوع في العالم ، فقال لي بلهجة صارمة وجازمة : « ليس لهذا الكتاب من وجود على الاطلاق » .

ليست « ايام العيد س » في نهاية المطاف الا فرضية حول شخصية قيصر ، ولكنها فرضية قد تكون ارقى من الواقع . « جميعنا نتفهم جيدا تصرف طاهي قيصر الذي قتل نفسه عندما احترق الطعام » ، هذا ما يقوله شخص يدعى كورنيليو نيبوت ، ابتدعه ثورنتون ويلدر . ويقول انه كان هناك ضيوف بارزون حين وقعت محنة احتراق الطعام ، فاجبر رئيس الخدم المذعور الطاهي ان ينقل الخبر بنفسه الى قيصر . لكن هذا الاخير لم يتأثر حين علم بالامر ، بل طلب من الطاهي بكل لطف ان يأتيه بتمر وسلطة بدلاً من العشاء الضائع . حينئذ خرج الطاهي الى الحديقة وذبح نفسه بسكين تقطيع الخضار.

بعد عشرين قرناً على وقوع هذا الحادث ، شاعت في اسبانيا قصة توضح على احسن وجه ، مثلما يوضح الحادث المذكور ، فاجعة السلطة . تقول القصة ان احدى حفيدات الجنرال فرانثيسكو فرانكو ، وعمرها نحو سبع سنوات ، ابدت شيئاً من الضيق في بيت احد الوزراء حين ظهرت في التلفزيون فتاة اعلان جذابة .

قالت الطفلة ان المعلنة « ثقيلة الظل » ... حينئذ سألوها لماذا تقول ذلك، فأجابت : « لان جدي يقول انها ثقيلة الظل » .

فكانت تلك هي المرة الاخيرة التي ظهرت فيها المعلنة الجذابة في التلفزيون .

في الخامس عشر من آذار سنة ٤٤ قبل ميلاد المسيح ، كان الجميع في روما يعلمون ان هناك من يريدون قتل قيصر . الجميع كانوا يعلمون بالامر ما عداه هو نفسه . ويروي بلوتاركو ان ارتيميدورو الاغريقي ، معلم البلاغة اليونانية ، شق طريقه وسط الحشود التي كانت تهتف للدكتاتور وهو في طريقه الى مجلس الشيوخ ، وسلمه ورقة مكتوبة بخط يده ونبهه الى وجوب قراءتها فوراً .

كان من عادة قيصر ان يعطي معاونيه الاوراق الكثيرة التي تقدم اليه في الشارع ، لكنه احتفظ بتلك الورقة في يده اليسرى ليقرأها في اول فرصة مناسبة .

في تلك الورقة ، كانت مدونة تفاصيل المؤامرة التي سيتم فيها اغتياله، لكنه لم يقرأها ابداً ، لانه دخل بعد لحظة الى مجلس الشيوخ ، ولقي هناك مصرعه بثلاث وعشرين طعنة ، وينهي سويتونيو روايته بهذه الطريقة : « لقد قال انتيسيو الطبيب ، انه بين جميع الجراح ، فإن الجرح الثاني في الصدر هو الذي ادى الى الوفاة » . ان اي تشابه بين هذا الكلام واية قصة اخرى ، سواء اكانت حية او ميته ، هو محض مصادفة .

انتهزنا فرصة وجودنا في اليونان يوماً ، وذهبنا لاستشارة وحي اوراكل. ركبنا حافلة مبردة من اثينا في السابعة صباحاً ، وبعد ثلاث ساعات من ذلك كنا في « دلفوس » ، موطن الوحي ، ومدينة ابولو المقدسة التي كانت في زمانها سرة العالم . كانت الحافلة تغص بيونانيين مدجنين ، يتابعون برصانة شديدة ، في كتيبات ملونة ، شروحات الدليل اليوناني ، التي كان يقدمها بلغة انكليزية تكاد تكون تخيلّية .

ان اللغة العالمية في الواقع ليست اللغة الانكليزية ، وانما الانكليزية الركيكة . ولو ان احداً تكلم الانكليزية بشكل مقبول ، لما وجد من يفهم ما يقوله . واثناء توقف سيل المعلومات المطولة ، كنا نحاول التناوم مع انغام الموسيقى العالمية ، وهي ليست موسيقى موزارت ، كما يظن العارفون ، وانما تلك الموسيقى غير المتناهية التي يختارها خبراء سيئون ، والتي تدوي دون هوادة في جميع مصاعد العالم .

كانت الرحلة بطيئة وحذرة ، فالسائقون اليونانيون مزودون بتعليمات تفرض عليهم ممارسة مهنتهم بهدوء ، كي لا يخيفوا السيدات المتقاعدات القادمات من نيفادا ، ومن ميريلاند ، وكينيتكي ، برفقة ازواج مسنين ليسوا ازواجهن في بعض الاحيان ، وانما ازواج مستعارون سراً ليلعبوا معهن لعبة

الحب الخريفي ، بعد استشارة وحي اوراكل . كنا نمضي ببطء عبر حقول قمح مشمّسة واشجار زيتون الفية ، ثم عبر مضائق جبلية مرعبة تحلق فيها طيور هائلة وسوداء ، كانت تعتبر في عصور ازهى ، نسور زيوس . وتجرأ الدليل في احدى اللحظات على القول : « يمكنكم ان تشاهدوا الى اليمين برجاً من القرن الخامس عشر » . قال ذلك بشئ من الخجل ، وكان محقاً في ذلك . ففي بلد يجد المرء نفسه وهو يأكل فجاة بملعقة ترجع الى القرن السابع قبل الميلاد ، لا تتمتع نتفة برج مثل تلك باهمية اكبر من اهمية محطة بنزين . ومع ذلك ، فإن الادلاء يؤدون مهمتهم ، لان السائحين ينتظرون ان يقال لهم كل شئ مقابل المال الذي يدفعونه ، وهم سيسالون الادلاء على اية حال ، إذا لم يقل هؤلاء ذلك من تلقاء انفسهم . لهذا السبب بالذات ، وكلما وصلت الى مدينة ازورها لاول مرة ، اسجل نفسي في برنامج سياحي ، وانهي تلك المسالة دفعة واحدة والى الابد . واعرف ابتداء من تلك اللحظة ، ان كل ما سأراه عليّ ان اكتشفه بوسائلي الخاصة ، بعد ان اكون قد عرفت كل ما هو معروف . بل انني وصلت الى ابعد من ذلك : ففي مدينة مكسيكو ، وبعد ان عشت هناك عشرين سنة ، اشتركت في برنامج سياحي لمجرد الفضول بمعرفة الطريقة التي يعرضون بها المدينة للسائحين ، وقد فوجئت بعدد الاشياء التي كانت عيناي تغفلها كمقيم في المدينة.

بالرغم من ذلك كله ، عليّ ان اعترف بأني اهتم بالاسطورة اكثر من اهتمامي بالحقيقة التاريخية ، وبالتالي فإنني اهتم ، في اليونان ، بهوميرو اكثر من اهتمامي بهيرودوت . لذلك كان اهتمامي منصباً اثناء زيارتي لأوراكل على معرفة مصادر ماساة اوديب ، وليس تاريخ الطغاة الكثيرين الذين لقوا في ذلك المكان نكبتهم او حسن طالعهم . وقد بدأ انفعالي اثناء الطريق ، عندما قال

الدليل : « في هذا الموضع ، كما تقول الاسطورة ، قتل أوديب أباه ، الملك لايوس » . لكنها كانت العبارة الوحيدة التي قالها عن الموضوع طوال الرحلة . ويبدو لي انهم يعتبرون مأساة أوديب ، هنا في اليونان ، مجرد خرافة خيالية ، مثلها مثل مغامرات اوليسيس ونكبة ميديا . لكنني لا ادري لأي اسباب غريبة ، قبلت شخصيات الميثولوجيا في ميادين الحياة الواقعية .

انهم يحدثوننا عن بروميثيو مقيداً تنهشه الجوارح على قمة جبل ، ثم يروون لنا كيف ان ابولو قد ناضل ضد الافعى « بيثون » الى ان تمكن من الحلول محلها ، ويفسرون لنا العالم من خلال الآلهة الذين لا حصر لهم والآلهات الخبيثات وكانهم اكثر واقعية من رجال سوفوكليس ونسائه . بينما يجري بالمقابل إخفاء افضل الحقائق ، وأكثرها انسانية ، بحياء . فعن البارثينون ، الذي لا يكاد يحتفظ بتماسكه ، ويبدو وكانه مصنوع من قشور البيض ، يقال لنا انه كان معبد اثينا العظيم ، وانه قد حوّل في القرن الثالث عشر الى معبد كاثوليكي على يد الصليبيين ، ثم الى مسجد للأتراك بعد قرنين من ذلك ، ولكنهم يخفون عنا مكانته الاكثر انسانية ، حين كان يستخدم مقراً لإقامة محظيات أحد ملوك مقدونيا في القرن الرابع قبل الميلاد . وبالطريقة نفسها ، يقال لنا انه كان لا بد لكاهنات الاوراكل من ان يكن قد تجاوزن الخمسين من العمر ، وان يكن دميمات وفظات ؛ وانهن « منذ اللحظة التي يكرسن فيها انفسهن لخدمة الالهة عليهن ان يهجرن ازواجهن واولادهن » . ولكن لا يقال لنا سبب ذلك ، ولا يقال لنا انهن كن في البدء أجمل العذراوات وأكثرهن نضارة في البلاد وان مفاتنهن كانت تلين اشد الحجاج زهداً .

عندما وصلنا الى قمة معبد دلفوس ، كان الدليل قد روى لنا كل شئ ، لكنه لم يقدم لنا اي عنصر جديد حول مأساة اوديب ، وهي الشئ الوحيد الذي

كان يهمني في نهاية المطاف من الاوراكل . يقال إن الكاهنة ، وقبل ان تتنبأ ، كانت تتطهر في مياه نبع كاستاليا القريبة ، وتمضغ اوراق الغار وتستنشق ابخرة البخور والصبر ، الى ان تفقد السيطرة على نفسها حين يتوجب عليها الرد على اسئلة الحجاج القادمين من جميع ارجاء العالم المعروف حينئذ ، والذين يمكن ان يكونوا ملوكاً او متسولين . ويقال إن اجاباتها كانت عبارة عن زعيق وصراخ غير مفهوم ، يفسره الكهنة على هواهم . اي انه لم يكن بالامكان معرفة المغزى الدقيق للنبوءة ، وكانت جميع النبوءات تبقى غير مفهومة وغامضة الى ان تتحقق . واشهر النبوءات هي تلك النبوءة التي تلقاها الملك كريسو ، الشهير بثرواته الطائلة ، حين اراد ان يعرف إن كان يناسبه خوض حرب ضد الفرس الذين كانت مملكتهم على الضفة الأخرى لنهر هاليس . فرد عليه الوحي في اوراكل : « اجل يا كريسو ، اجتز النهر لتدمر مملكة عظيمة » . فعل كريسو ذلك واندحر وتحققت بذلك النبوءة ، اذ انه دمر مملكته ذاتها ، وكانت من اعظم الممالك في زمانه . وعلى عكس النبوءات الأخرى جميعها ، كانت النبوءة التي تلقاها اوديب ، ملك طيبة ، مباشرة وواضحة : سينحسر الوباء يوم يكشف عن قاتل لايوس ، الملك السابق . وقد اكتشف أوديب ذلك كما هو معروف ، واكتشف في الوقت ذاته حقيقة هويته وقدره . وهكذا ولدت ، والى الابد ، الحبكة الأدبية الوحيدة ذات الكمال المطلق : حيث المحقق الذي يكتشف انه هو نفسه القاتل .

لا شك ان الشئ الاكثر ابهاراً في معبد دلفوس هو المكان الذي بني فيه، حتى ان المرء يبدي استعداداً للإيمان بانه كان سُرَة الارض فعلاً ، لو لم تكن معروفة مرتفعات ماتشو بيتشو ، في جبال الانديز ، حيث يشعر الانسان انه قد انتقل الى كوكب آخر . ويكون المرء مستعداً للسجود اعجاباً امام منشآت

دلفوس القائمة على احجار واحلام ، لو لم يكن معروفا محيط اوكسمال وتشيتشين اتزا السحري ، في يوكاتان ، حيث يخيل لنا اننا ما نزال نشعر بانفاس من عاشوا هناك . لكن المقارنة ليست عادلة ، لان مراكز الطقوس في المكسيك ما تزال سليمة وكانها لم تمس ، بينما لا يوجد من نصب اليونان سوى بقايا عملية نهب تاريخية جائرة .

الحقيقة ان الناس يذهبون الى اليونان ليتعرفوا على الاماكن التي كانت تقوم فيها المنشآت ، ويتخيلوا من خلال القراءات الكثيرة المتاخرة ، ومن خلال انكليزية الأدلاء التقريبية ، كيف كانت النصب قبل ان تمر بها الفيالق الامبراطورية ، القادمة من البلدان التي تشعر اليوم انها متحضرة . ثمة جزيرة صغيرة جداً - ميلوس - ضائعة وسط جزر ارخبيل سيكلاد ، لا يتذكرها احد لدى المرور من هناك الا لأنه عُثر فيها على تمثال فينوس مبتور الذراعين ، الذي صار اليوم ، الى جانب الجوكندا ، من اكثر مقتنيات متحف اللوفر جاذبية .

ما زال يوجد الى اليوم ، في متحف دلفوس - بمعجزة محضة - تمثال حوذي مصبوب من البرونز ، يبدو وكانه كائن حي . وهو في نظري أكثر الأعمال ابهاراً بين فنون جميع العصور . اما ما عدا ذلك فليس سوى انقاض متبقية من عمليات النهب ، لأن افضل ما في ذلك العالم - بإستثناء الأماكن الجغرافيه، التي لا يمكن نقلها لحسن الحظ - لم يعد موجوداً حيث وضعته الالهة ، وانما هو الان في المتحف البريطاني بلندن ، او في متحف اللوفر بباريس ، رغم حكمة وحي الاربعاء وقدرته التكهنية ، ذاك الوحي الذي لم يعد يتذكر أوديب .

٢٥ مليار كيلومتر مربع
بلا زهرة واحدة

عندما حطّ نيل ارمسترونغ فوق سطح القمر ، منذ سبعة عشر عاماً ، صاح مذيع التلفزيون منفعلاً : « ها هو ذا الانسان يضع قدمه على القمر لاول مرة في التاريخ » . ففوجئ الطفل الذي كان يتابع معنا بشغف تفاصيل الهبوط ، وصرخ مذهولاً :

– أهي المرة الأولى ؟ يا للحماقة !

لقد كانت خيبة أمله مفهومة . فطفل من عصره ، اعتاد التسكع كل ليلة في ارجاء الفضاء الكوني ، عبر التلفزيون ، يبدو له خبر وصول الانسان الى القمر لاول مرة أشبه بالعودة الى العصر الحجري . ولقد سبب الخبر لي انا ايضاً نوعاً من فتور الهمة ، ولكن لأسباب أشد بساطة . فقد كنا نقضي الصيف حينئذ في جزيرة بانيتلاريا ، في اقصى جنوب صقلية ، ولست اظن ان في العالم كله مكانا أفضل منها للتفكير بالقمر .

انني اتذكر كما في حلم : بطحاء الصخور البركانية المترامية ، والبحر الساكن ، والبيت المطلي بالكلس الابيض كله ، حتى جدران الاجر فيه ، والذي تبدو من نوافذه ، في الليالي الهادئة الرياح ، حزم النور المنبعثة من فنارات

افريقيا . وفيما كنا نستكشف الاعماق البحرية الهاجعة حول الجزيرة ، اكتشفنا صفاً من الطوربيدات الصفراء الغارقة منذ الحرب الأخيرة ؛ واستخرجنا جرة مزينة باغصان غار متحجرة ما زالت فيها بقايا نبيذ مغرق في القدم ، وكانت جوانبها قد تآكلت بفعل السنين الطويلة . وسبحنا في مياه راكدة مدخنة ، تبلغ من الكثافة حداً يجعل المشي فوقها امراً ممكناً .

كنت افكر ، بشئ من التشوق ، بانه لا بد للقمر من ان يكون مثل ذلك المكان . لكن هبوط ارمسترونغ ضاعف من غروري الوطني : فبانتيلاريا كانت افضل من القمر .

بالنسبة لنا ، نحن الذين نضيع الوقت مفكرين بمثل هذه الامور ، هنالك قمران اثنان . (القمر) الفلكي ، وهو ذو قيمة علمية كبيرة دون شك ، ولكنه يخلو تماماً من اية قيمة شاعرية . اما الآخر ، فهو القمر السرمدي الذي نراه على الدوام معلقاً في السماء ؛ انه قمر أغاني البوليرو الوحيد ، والذي لن يتمكن احد – لحسن الحظ – من الوصول اليه .

يبدو ان غزو الفضاء ما يزال محكوماً حتى الآن بهذا النوع من خيبة الأمل . وخيبة الأمل الأكثر حزنا هي انه – بعد رحلة ڤوياجر (١) المذهلة – بات مؤكداً ، دون اي شك ، انه لا وجود في هذا الاقليم المتناهي الصغر ، الذي هو المجموعة الشمسية ، اي اثر للحياة حسب مفهوم الحياة الذي نعرفه . فالزهرة وعطارد ، الكوكبان الاقرب الى الشمس ، كانا مستبعدين من هذا الاحتمال منذ زمن بعيد ، لانهما كرتان متاججتان ليست لهما اية قيمة تجارية . وأخاديد المريخ التي كنا نفترض ان ابناء عمومتنا الفضائيين هم الذين حفروها ، ليست على ما يبدو الا مجرد وهم . والمشتري الاكبر من الارض ب ٣١٧ مرة ، ما هو الا عملاق احمق ، درجة حرارته مئتان تحت الصفر . وبعد الارتياد المثمر

لكوكب زحل ، لم يبق لنا سوى معرفة أورانوس ونبتون وبلوتون ، هؤلاء الشيوخ الثلاثة المتوحدون في ضواحي المجموعة الشمسية ، ذوو المدارات المفرطة في الاتساع ، حتى ان الاخير منهم يحتاج الى اكثر من ٢٤٨ سنة من سنواتنا ليقوم بدورة واحدة حول الشمس .

ان فائدة هذه الاكتشافات كبيرة ولا حدود لها بالنسبة للعلوم ، شريطة ان تكون القضية واضحة في ذهن الجميع : لا وجود لأحد هناك . انه ليل جليدي فسيح على امتداد ٢٥ مليار كيلو متر مربع ، حيث يوجد اقيانوس من النتروجين السائل ، ورياح اشد تدميراً بعشر مرات من اعاصير سومطرة ، وعواصف قيامية يمكن لها ان تستمر حتى ٣٠٠٠٠ سنة متواصلة ، ولكن لا وجود هناك ولو لزهرة واحدة ، حتى ولا وردة بائسة مثل هذه التي فوق طاولتي ، والتي ربما تشعر بالضجر لانها ليست الا ما هي عليه ، جاهلة انها بحد ذاتها معجزة لا تتكرر في الكون .

لقد كتب لوثيانو دي ساموساتا - حسب قول خورخي لويس بورخيس في مقدمته لكتاب براد بوري . (أخبار مريخية) - ان سكان القمر كانوا يغزلون وينسجون المعادن والزجاج ، وانهم كانوا ينزعون العيون من حدقاتها ويعيدونها ثانية الى مكانها ، ويشربون خلاصات الهواء . انه استشهاد مثل جميع استشهادات بورخيس : مذهل ومثير للريبة في الوقت ذاته ، لكنه يوضح جيداً الصورة التي كانت شائعة في القرن العاشر ، عن الكائنات غير الارضية . ومع تقدم العلم وتهذيب المخيلة ، لم تتحسن الرؤيا ، وانما حدث عكس ذلك تماماً . فكتّاب الخيال العلمي يعرضون اقرباءنا الفضائيين على انهم مخلوقات ضبابية ذات آذان مثل آذان الخفاش ، وذوي هوائيات بدلاً من القرون ، وأغشية بين الأصابع ومحاجم في مواضع الحواس . وكل ما هو مرتبط بهم هو ذو طبيعة

لزجة ومرذولة ، وتفوقهم الوحيد علينا هو أسلحتهم الشيطانية وذكائهم العجيب في اقتراف الشرور . ولم تتوصل السينما الى رعب اشد هولاً من رعب افلام الفضاء .

ربما افادتنا خيبة الأمل في وجود الجيرة الفضائية ، بالسعي لتصحيح سوء التفاهم الخطير والظالم الشائع . وربما - بعد كل هذه الحقب من الخيال البائس - بدانا نفهم ان سكان الكواكب الاخرى لا يمكن ان يكونوا حيث بحثنا عنهم طويلاً ، لأنهم موجودون هنا على الارض قبلنا بكثير : انهم الجراثيم . فمنذ آلاف السنين والجراثيم تعيش في حياتنا ، وتبحر في دمنا ، وتنام في جراحنا ، وتولد وتموت معنا ، وما زلنا - نحن وهي - لا نعرف من نحن . فطبيعتها المختلفة تمنعها من عمل ما ترغب فيه ، وتمنعنا من عمل ما نرغب فيه ، الا وهو جلوسنا معاً لتناول الطعام على المائدة ذاتها ، ولعب الورق ، ورواية حقائق الكون للأطفال كي لا يذهبوا الى السينما ويشاهدوا كل تلك الإفتراءات عن الفضاء .

وبدلاً من ذلك ، ترانا نلجا الى المشاحنات منذ البداية . فهي تسعى لإبادتنا ونحن نسعى لإبادتها ، في حرب ضارية لا ندري بالتحديد ضد من نشنها . اذ من المحتمل جداً ان تكون جراثيمنا ، مثلنا تماماً ، جاهلة كذلك اين هي ، ولماذا جاءت .

لقد قال بول ايلوار يوماً : « هنالك عوالم اخرى ، لكنها في هذا العالم » وثمة كاتب عظيم آخر من عصرنا ، ربما لا يؤمن بالمريخيين ، قال الشئ ذاته بطريقة اشد قسوة : الارض هي جحيم كواكب اخرى .

إنفجار ديموقليس

نص كلمة ألقاها الكاتب في جلسة افتتاح ندوة السلام ونزع السلاح ، التي عقدت يومي ٦ و ٧ آب ١٩٨٦ ، في « اكستابا » بالمكسيك ، وشارك فيها الرؤساء : راؤول الفونسين (رئيس الارجنتين) ، اندريس باباندريو (اليونان) ، راجيف غاندي (الهند) انغفار كارلسون (السويد) ، ميغل دي لا مدريد (المكسيك) ، وجوليوس نيريري (تنزانيا) .

بعد دقيقة واحدة من الانفجار الأخير : سيكون اكثر من نصف البشر قد قضوا نحبهم ، وسيعود الظلام المطبق ليخيم على العالم . وسيحل شتاء ذو مطر برتقالي وأعاصير جليدية ، فيقلب الزمن في المحيطات ، ويعكس مسار الأنهار التي ستكون اسماكها قد ماتت ظما في المياه المتقدة ، ولن تجد عصافيرنا السماء . ستغطي الثلوج الأبدية وجه الصحراء الكبرى ، وستختفي مناطق الأمازون المترامية عن وجه الارض المُدَمَّر بفعل وابل البَرد ، وسيتراجع عصر الروك وزرع القلوب الى طفولته الجليدية . أما الكائنات البشرية التي ستنجو من ضربة الرعب الأولى ،وأولئك الذين نالوا امتياز التواجد في ملجأ آمن في الساعة الثالثة من مساء يوم اثنين الكارثة العظمى المشؤوم ، سيكونون قد نجوا بحياتهم لكي يموتوا بعد ذلك من هول ذكرياتهم وحدها . لقد انتهى الخلق . وفي هيولي الانسانية النهائي ، وفي الليل الأبدي ، ستكون الصراصير هي الاثر الوحيد المتبقي مما كانته الحياة .

السادة الرؤساء ،

السادة رؤساء الحكومات ،

أيتها الصديقات ، أيها الأصدقاء ،

ليس ما قلته محاكاة شوهاء لهذيان يوحنا في منفاه بباتموس ، وإنما هو الرؤية المسبقة لكارثة كونية قد تقع في هذه اللحظة بالذات : انفجار - مُوَجَّه او صُدَفي - لجزء ضئيل فقط من الترسانة النووية التي تنام بإحدى عينيها وترصد بالعين الاخرى ، في مخازن القوى العظمى .

هكذا هي الأمور . فاليوم ، السادس من آب ١٩٨٦ ، يوجد في العالم اكثر من خمسين ألف رأس نووي منصوبة . وهذا يعني ، بعبارة مألوفة ، ان كل كائن بشري ، دون استثناء الاطفال ، يجلس على برميل يحتوي بضعة أطنان

من الديناميت ، سيؤدي انفجارها الكامل الى محو كل اثر للحياة عن وجه الارض اثنتي عشرة مرة . إن القدرة التدميرية لهذا التهديد المريع ، المسلط على رؤوسنا مثل انفجار ديموقليس ، تطرح الامكانية النظرية في إلحاق الأذى باربعة كواكب اخرى ، إضافة لتلك التي تدور حول الشمس ، والتاثير على توازن المنظومة الشمسية . ليس هنالك من علم ، او فن او صناعة قوضت نفسها مثلما فعلت الصناعة الذرية منذ نشاتها ، قبل احدى واربعين سنة ، وليس هنالك ابداع من ابداعات الانسان الخلاّق حاز على مثل هذه القدرة في الحسم على مصير العالم .

ان العزاء الوحيد في هذه التبسيطات النظرية – ان كانت تنفعنا بشئ –، هو التاكيد على ان الحفاظ على الحياة الانسانية فوق الأرض ما زال ارخص كلفة من الطاعون النووي . فمجرد وجود الكارثة الرهيبة الحبيسة في مخازن الموت في الدول الأغنى ، يهدر إمكانيات الوصول الى حياة أفضل للجميع .

ففي مجال رعاية الطفولة على سبيل المثال ، يشكل هذا الامر حقيقة حسابية أولية . فقد وضعت اليونيسيف عام ١٩٨١ برنامجاً لحل المشاكل الاساسية لخمسة عشر مليون طفل يعيشون دون مستوى الفقر في العالم . ويتضمن البرنامج تقديم الرعاية الصحية الاولية ، والتعليم الاساسي ، وتحسين ظروف النظافة ، والتزود بمياه الشرب والأغذية . وكلفة هذا كله ، الذي يبدو حلماً مستحيلاً ، هي مئة مليون دولار . لكن هذا المبلغ لا يكاد يعادل كلفة مئة قاذفة استراتيجية من طراز ب – ١٣ ، واقل من كلفة سبعة الاف صاروخ كريزر ، ستوظف حكومة الولايات المتحدة لإنتاجها واحداً وعشرين الفاً ومئتي مليون دولار .

وفي مجال الصحة مثلا : بكلفة ١٠ حاملات طائرات من نوع نيميتز ، من الحاملات الخمس عشرة التي ستصنعها الولايات المتحدة قبل العام ٢٠٠٠ ، يمكن تحقيق برنامج وقائي يحمي ، خلال هذه السنوات الأربع عشرة القادمة ، اكثر من مليار شخص من مرضى الملاريا ، ويحول دون موت أكثر من أربعة عشر مليون طفل في افريقيا وحدها .

في مجال التغذية مثلاً : كان يوجد في العالم السنة الماضية ، استناداً الى احصائيات منظمة (الفاو Fao) ، حوالي خمسمائة وخمسة وسبعين مليون شخص يعانون الجوع . ولم يكن تامين حاجاتهم الضرورية من السعيرات الحرارية يكلف إلا اقل من مئة وتسعة وأربعين صاروخاً من نوع إم اكس ، من الصواريخ المائتين وثلاثة وعشرين التي ستنصب في اوروبا الغربية . وبسبعة وعشرين صاروخاً من تلك الصواريخ ، يمكن شراء المعدات الزراعية اللازمة لكي تنتج البلدان الفقيرة كفايتها الغذائية خلال السنوات الأربع القادمة ، علماً ان كلفة هذا البرنامج الغذائي لا تصل الى تُسع الميزانية العسكرية السوفييتية لعام ١٩٨٢ .

في مجال التربية : بقيمة غواصتين ذريتين من نوع « تريدنت » التي تخطط حكومة الولايات المتحدة الحالية لصنع خمس وعشرين منها ، او بعدد مماثل من غواصات « تيفون » التي يبنيها الاتحاد السوفييتي ، يمكن لنا أخيراً ان نواجه شبح الأميّة في العالم . ومن جهة أخرى ، فإن بناء المدارس ، وتأهيل المعلمين اللازمين للعالم الثالث ، من اجل تغطية احتياجات التربية الاضافية خلال السنوات العشر القادمة يمكن تغطية نفقاته كلها بما يكلفه صنع مائتين وخمسة وأربعين صاروخاً من نوع « تريدنت ٢ »، ويزيد بعد ذلك أربعمائة وتسعة عشر صاروخاً من اجل تطوير التعليم في السنوات الخمس عشرة التالية .

ويمكن القول اخيراً ، ان الغاء ديون العالم الثالث الخارجية كلها ، ومساعدته خلال عشر سنوات قادمة ، يكلف ما يزيد قليلاً عن سدس نفقات العالم العسكرية خلال الفترة ذاتها . ومع ذلك ، وامام هذا الهدر الاقتصادي الهائل ، فإن ما يثير القلق والأسى هو التبديد البشري : فالصناعة الحربية تاسر أكبر عدد من العلماء ، وهو عدد لم يجتمع مثله لإنجاز أية مهمة خلال تاريخ البشرية كله . والمكان الطبيعي لهؤلاء العلماء ليس هناك ، وانما هنا ، على هذه المائدة ، وتحريرهم واجب لا بد منه ، لكي يساعدونا في مجالات التعليم والعدالة ، لخلق الشئ الوحيد القادر على انقاذنا من البربرية : ألا وهو ثقافة السلام .

رغم هذه المعلومات المأساوية المؤكدة ، فإن سباق التسلح لا يتوقف لحظة واحدة . فالآن ، وفيما نحن نتناول الغداء ، جرى بناء رأس نووي جديد . وغداً ، حين نستيقظ ، ستكون هناك تسعة رؤوس نووية جديدة في مخازن الموت ببلدان العالم الثري . ان كلفة واحد من تلك الرؤوس تكفي لتعطير شلالات نياجارا بالصندل ، ولو ليوم أحد خريفي واحد .

لقد تساءل روائي عظيم من زمننا ما اذا كاغنت الأرض هي جحيم كواكب أخرى . وأقول : ربما هي أقل من ذلك بكثير ... ربما هي مجرد قرية بلا ذاكرة ، مفلتة من يد آلهتها في أقصى ضاحية من الوطن الكوني الكبير . لكن الشك المتزايد في انها المكان الوحيد في المنظومة الشمسية الذي ازهرت فيه مغامرة الحياة العجيبة ، يقودنا دون مواربة الى استخلاص نتيجة مثبطة للعزيمة: إن سباق التسلح يسير في اتجاه معاكس للذكاء .

ليس معاكساً للذكاء الانساني وحسب ، وانما لذكاء الطبيعة ذاتها ، التي تجاوزت غايتها رؤيا الشعر وبصيرته . فمنذ ظهور الحياة المرئية على الارض

كان لا بد من مرور ثلاثمئة وثمانين مليون سنة كي تتعلم الفراشة الطيران ، وكان لا بد من مئة وثمانين مليون سنة اخرى كي تتقن الطبيعة صنع وردة دون ان يكون لها غرض آخر سوى الجمال ، وكان لا بد من اربعة عصور جيولوجية لكي تتمكن *الكائنات البشرية* – خلافاً *لجدنا* قرد البيبيتكانتروب – من الغناء خيراً من العصافير ، ومن الموت حباً . وليس مشرفاً للعبقرية البشرية ، في العصر الذهبي للعلم ، أن تتصور أن عملية مكلفة وهائلة ، احتاج إنجازها لملاين السنين، يمكن لها أن ترجع الى العدم الذي جاءت منه ، وذلك بمجرد الضغط على زر .

وفي محاولة لمنع حدوث ذلك ، اجتمعنا هنا ، لنضم صوتنا الى أصوات لا حصر لها تطالب بعالم خال من الأسلحة وبسلام عادل . ولكن إذا ما حدث ذلك – بل إذا حدث فعلاً – ، فلن يكون اجتماعنا هنا عديم الجدوى . لأنه ربما جرى بعد ملايين وملايين الحقب من وقوع الانفجار ، تتويج سلمندر مختال ، عاد ليجتاز سلم الأجناس كله ، بتاج أجمل إمرأة في الخلق الجديد . فعلينا نحن رجال العلم ونساءه ، رجال الأدب ونساءه ، رجال الذكاء والسلام ونساءه ، علينا جميعاً تقع مسؤولية ألاّ يذهب المدعوون إلى حفلة التتويج الخيالية تلك وهم مثقلون بالمخاوف التي نشعر بها اليوم . لهذا فإنني أقترح بكل تواضع ، ولكن بكل ما في الروح من تصميم ، ان نصل ، الآن وهنا ، الى الإلتزام بوضع تصور وصنع فلك الذاكرة ، القادر على النجاة من الطوفان النووي . أن نصنع نوعاً من قنينة الناجين من الغرق الكوني ، ونلقي بها في اقيانوسات الزمن ، لكي تعرف الانسانية الجديدة عنا ما لا يمكن للصراصير أن ترويه لها : ان تعرف أن الحياة كانت موجودة هنا ، وأن الألم والظلم كانا سائدين فيها ، ولكننا رغم ذلك كله عرفنا الحب ، وكنا قادرين على تصور السعادة . وأن نعرف

ونجعل جميع الأزمنة تعرف من هم المسؤولون عن كارثتنا ، وكم صموا آذانهم عن صرخاتنا المطالبة بالسلام ويجعل هذه الحياة هي أفضل الحيوات الممكنة ، وبأية اختراعات همجيّة ، وفي سبيل اية مصالح بائسة محوها من الكون .

في فترة تكاد تكون غير واقعية ، كان فيها جميع الناس شباناً ، غلب النوم الناقد السينمائي المكسيكي اميليو غارسيا ريبرا ، في غرفةٍ باحد الفنادق ، وهو يدخن في سريره . أُفلتت السيجارة من فمه في اللحظة ذاتها التي أفلت فيها الكتاب من يده . وعندما استيقظ كان يوشك أن يموت مختنقاً ، في غرفة يملؤها الدخان ، وفوق فرشة مشتعلة . ولم يكن ممكناً اقناع مدير الفندق بان ما جرى هو حادث عادي ، وأنه لا بد لعقود التامين من أن تاخذه بعين الاعتبار ، وتدفع التعويض ، مثلما هو الأمر بالنسبة للكؤوس التي تتكسر والسجاد الذي يهترئ عند ترك صنبور الحمام مفتوحاً ، وانه ليس من العدل بالتالي ، محاولة اضافة ثمن الفرشة المحروقة الى فاتورة حساب ناقد سينمائي، ترفه البرجوازي الوحيد هو التدخين نائماً . ولكن لم تكن ثمة وسيلة : فقد قبض الفندق ثمن الفرشة بسعر فرشة جديدة .

لقد تذكرت هذه الحادثة الشبابية وأنا أقرأ مقالاً عن مخاطر التدخين ، لا يذكر كاتبه السرطان كأحد اكثر تلك المخاطر رهبة . يقول المقال الذي وزعه قسم الخدمات الاخبارية في النيويورك تايمز : « تشير التقديرات الى ان ما لا يقل عن ٢٥٠٠ شخص يموتون سنوياً في حرائق تسببها السجائر ، وان نحو ٢٥٠٠٠ آخرين يتضررون من حرائق ناتجة عن السبب ذاته ، وأنه تسجل

خسائر تزيد قيمتها عن ٣٠٠ مليون دولار سنوياً » . والمشكلة ، فوق ذلك هي ان تلك الكوارث تحدث في اماكن لا يمنع فيها التدخين ، مما يعطينا فكرة عما سيكون عليه حجم الاضرار لو لم تكن توجد قيود تحد من حرية المدخنين .

لقد حدثني أحد الطيارين يوماً عن سبب منع التدخين في الطائرات عند الاقلاع وعند الهبوط فقط ، ولست اذكر التوضيح الذي قدمه لي ، ربما لأنه لم يكن مقنعاً . ومع ذلك ، فإنني كلما رأيت أحداً يدخن اثناء رحلة في الطائرة ، يراودني شعور يقيني بانه يقترف أمراً على جانب كبير من التهور ، وأنه يعرض حياة جميع المسافرين لخطر اضافي ، فضلاً عن المخاطر الكثيرة التي يعرضنا اليها الإبحار الجوي بحد ذاته . وقد سألني جاري في المقعد قبل مدة ، اثناء رحلة فوق المحيط الأطلسي ، عما إذا كان سيزعجني لو انه دخن سيجارة ، فاجبته أن لا ، طالما تلطف ودخن سيجارته وهي مطفاة . لقد أردت أن أقول له بذلك إن الدخان لا يسبب لي أية مضايقة ، لكنني لا أستطيع ان احتمل التوتر الذي تسببه لي رؤية جمرة متقدة داخل حيز اصطناعي مغلق ، خاضع لضغط ألف متر على ارتفاع ١٥٠٠٠ قدم ، ومنطلق بسرعة ٩٠٠ كيلو متراً في الساعة. لم يكن التدخين ممنوعاً في دورات المياه بالطائرات الى ما قبل خمس سنوات . أما الآن ، فلا توجد لوحات تنبيه تمنعه وحسب ، وانما يرد منعه كذلك التعليمات الشفوية التي تنطلق من مكبر الصوت باصرار مريب ، لتقول دون اي سبب ظاهر أحياناً ، إن التدخين ممنوع في دورات المياه .

ثمة مؤشرات معقولة بان ذلك المنع جاء نتيجة حادث مروع ، وقع منذ ست سنوات ، في أحد مطارات باريس ، عندما هوت على الأرض طائرة عملاقة تابعة لشركة أميركية لاتينية وتحطمت على بعد أمتار قليلة من المدرج . التحقيقات في الحادث ، التي علمت بها ، لم تنشر مطلقاً ، ولكن هناك روايات

جدية جداً تقول إن المسافرين قد ماتوا مختنقين بسبب دخان المواد البلاستيكية المشتعلة في احدى دورات المياه . ويبدو أن أحد المسافرين قد ترك سيجارة مشتعلة هناك .

من السهل تصور السبب الذي يجعلني اشعر بالراحة ، وانا أروي هذه الفظائع . فالمسالة هي انني مدخن متقاعد ، مع انني لم اكن من صغار المدخنين . لقد سمعت منذ زمن قريب أحد الأصدقاء يقول إنه يفضل ان يكون سكيراً معروفاً على ان يكون مدمن كحول مجهول . وقد قلت في إحدى المرات شيئاً آخر ، اقل ذكاء ، ولكنه ربما كان أكثر صراحة الآن : « أفضل الموت على ترك التدخين » . ومع ذلك ، فقد تركت التدخين منذ سنتين . لقد دخنت مذ كنت في الثامنة عشرة من عمري وبوتيرة لا أعرفها لدى كثير من المدخنين المتمادين . ففي اللحظة التي تركت فيها التدخين ، كنت ادخن اربع علب من سجائر التبغ الأسود خلال أربع عشرة ساعة : اي ٨٠ سيجارة . وقد قدر أحدهم أنني كنت اضيع من تلك الساعات الأربع عشرة المفيدة ، أربع ساعات كاملة في عملية إخراج السيجارة من العلبة ، والبحث عن الكبريت ، واشعال السيجارة . لقد كنت أدخن بإفراط ، ولكنني لم اكن تابعاً منكوباً : فانا لم أنم في يوم من الأيام أثناء التدخين ، كما انني لم أحرق مقعداً أو سجادة في إحدى زياراتي ، ولم أدخن عارياً وأنا اتمشى منتعلاً حذائي فقط - وهذا من أسوأ الأشياء التي تحدث في الحياة - ، ولم أنس سيجارة مشتعلة في أي مكان ، وخصوصاً في دورة مياه إحدى الطائرات بالطبع . لست أنوي بكلامي هذا القيام بالتبشير ، رغم اني أمارس ذلك واحبه عادة ، مثل جميع المرتدين الى الهداية . بل على العكس من ذلك : فعلي أن أقول انني لم اتعرض ، خلال سنواتي الطويلة كمدخن ، لنوبة سعال او لأي اضطراب في القلب ، او أي مرض كبير أو صغير

من تلك ، الأمراض التي تنسب الى كبار المدخنين . ولكنني عندما تركت التدخين بالمقابل ، اصبت بعدوى إلتهاب مزمن في القصبات الهوائية ، كلفني الشفاء منه مشقة كبيرة . واكثر من كل ذلك : لم اترك التدخين لأي سبب معين ، ولم أشعر مطلقاً بانني أصبحت احسن حالا او اسوأ حالاً ، ولم يتعكر مزاجي ، ولم يزدد وزني ، واستمر كل شئ كما لو انني لم ادخن في حياتي ابداً . او كما لو انني ما زلت مستمراً في التدخين .

لقد كنت أردد طوال سنوات كثيرة نكتة ضعيفة : « الطريقة الوحيدة لترك التدخين ، هي في التوقف عن التدخين بتاتاً » . وكانت مفاجاتي الكبرى في الدنيا هي انني ادركت حين تركت التدخين ، أن ذلك القول لم يكن نكتة ضعيفة ، وانما الحقيقة الناصحة . لكن الطريقة التي جرى بها الأمر تستحق الذكر ، فلربما وصلت هذه السطور الى عيني احد رغب يوماً في ترك التدخين ، وعجز عن ذلك . حدث الأمر في برشلونة ، في ليلة خرجنا فيها لتناول العشاء مع الطبيب لويس فيدوتشي وزوجته ليتيسا ، وكان سعيداً لأنه كان قد ترك السيجارة منذ نحو شهر . سألته وأنا مقدر لقوة ارادته ، كيف توصل الى ذلك . فاوضح لي الامر بحجج مقنعة تماماً ، جعلتني في النهاية اسحق عقب سيجارتي في المنفضة ، وكانت تلك هي السيجارة الأخيرة التي دختنها في حياتي . بعد اسبوعين من ذلك ، عاد الدكتور لويس فيدوتشي للتدخين . بدأ أول الأمر بغليون مطفأ ، وبعد ذلك بغليون مشتعل ، ثم بغليونين ، فثلاثة ، فاربعة غلايين مختلفة ، وهو يدخن الآن مجموعة غلايين بديعة تضم أربعين غليوناً من جميع الاصناف . وليستريح من كل تلك الغلايين ، فإنه يدخن احيانا سيجاراً من جميع الأنواع والطعوم والأحجام . ويقدم للأمر تفسيراً مقبولاً : فهو لم يقل لي مطلقاً انه ترك التدخين ، بل قال إنه ترك السيجارة .

جميع هذه التجارب - والتي ربما لا تعدو كونها ومضات الحسد التي يشعر بها ، دون ريب ، الرهبان الذين خلعوا مسوحهم - تتيح لي ان أفكر بان التدخين وعدم التدخين قد يكونان سواء . لكن من يديرون الحملات ضد التدخين، يجب الا يكونوا من الاطباء وعلماء النفس - الذين لم يتمكنوا مع ذلك من اقناع الكثيرين - وانما يجب اضافة تلك المهمة الى المهمات المتنوعة والمثمرة التي يؤديها رجال المطافئ .

الزوجات السعيدات ينتحرن في الساعة السادسة

اتسلى أحياناً ، في محلات السوبرماركت ، بمراقبة ربات البيوت ، وهن يقفن حائرات امام الرفوف لتقدير مال الذي يشترينه ، أراهن يتجولن مع عرباتهن وسط متاهة البَائع المعروضة لفضولهن ؛ فاسأل نفسي دوماً ، بعد التفحص ، أي واحدة منهن هي التي ستنتحر اليوم في الساعة السادسة مساء . لقد جاءتني هذه العادة السيئة ، من دراسة طبية حدثتني عنها منذ سنوات صديقة طبيبة ، وحسب تلك الدراسة ، فإن اكثر النساء سعادة في الديمقراطيات الغربية ، وبعد ان يعشن حياة خصبة كامهات انجيليات ، ويساعدن ازواجهن على الخروج من المستنقع ، ويربين أبناءهن ليصبحوا شديدي العود وليني القلب ، ينتهين الى الانتحار ، حين يبدو ان جميع المشاكل قد تم تجاوزها ، وانه لم يبق امامهن سوى الابحار في مستنقعات خريفهن الراكدة . ومعظمهن ، حسبما تقول الاحصائيات ، ينتحرن في المساء .

لقد كتب دوماً عن شرط المرأة ، وعن سر طبيعتها . ومن الصعب معرفة الآراء الاقرب الى الصواب . أذكر رأيا شديد الشراسة لا اريد التشهير بصاحبه لأنه شخص اقدره كثيراً ، واخشى ان أعرضه لغضب قارئات هذه

الملاحظة المحتملات ، وتقول عبارته : « النساء لا ينشدن اكثر من دفء منزل وحماية سقف يعشن في خوف دائم من الكارثة ، وليس هناك من أمان يحمل ما يكفي من الامن في نظرهن ، وليس المستقبل في عيونهن غير مامون وحسب ، وإنما هو كارثي ايضاً . وفي نضالهن المسبق ضد جميع هذه الشرور الغامضة، لا توجد حيلة الا ويلجان اليها ، ولا سلب الا ويستخدمنه ، ولا يوجد اي ابداع او خيال الا ويكافحنه . ولو ان الحضارة كانت بين ايدي النساء ، لعشنا الى اليوم في كهوف الجبال ، ولتوقف ابداع البشر عند حدود الحصول على النار . ولكان جل ما يطلبنه من الكهف ، اضافة لكونه ماوى . هو ان يكون افخم درجة واحدة من كهف جارتهن . ولكان كل ما يطلبنه من اجل امن اولادهن ، هو الاحتفاظ بهم آمنين في كهف كئل كهفهن » .. وفي الزمن الذي اطلعت به على هذا الكلام ، قلت في مقابلة صحفية : « جميع الرجال عنّينون » ولم يستطع اصدقاء كثيرون، وخصوصا ممن لم يكونوا كذلك ، ان يكبحوا اندفاع حميتهم الرجولية ، فردوا علي بشتائم علنية وأخرى وجهوها الي مباشرة ، يمكن ايجازها جميعها في عبارة واحدة : « كل اناء بما فيه ينضح » . وافكر الآن في ان العبارة التي قيلت عن النساء ، وعبارتي التي قلتها عن الرجال ، تستوجبان علي حد سواء ، اللوم في شئ واحد ، هو المبالغة ، ليس هناك شك في اننا جميعنا ، نحن الرجال ، نكون عنينين في لحظة لا نتوقعها ، وخصوصا عندما لا نريد ان نكون كذلك ، لانهم علمونا ان النساء ينتظرن منا اكثر بكثير مما نستطيعه ، ومثل هذا الشبح كفيل ، عندما تحين ساعة الجد ، بان يثبط عزيمة المتواضعين ، ويشوش المتعجرفين . اما العبارة حول النساء ، وكانت تشير في الحقيقة الي نساء الامبراطورية الرومانية ، فتفتقر الى الاشارة الى هول ذلك الظرف الذي يحمل ، في عصرنا ، عدداً كبيراً من ربات البيوت على تناول زجاجة كاملة من حبوب

المنوّم ، حبة بعد اخرى ، والى انهن يفضلن عمل ذلك مع كاس خمر ، في الساعة السادسة مساء .

ليس هناك ما هو اقسى واقحل وافقر من لوجستية البيت ، وأحد اكثر الامور *التي تذهلني ، والتي اقدرها في هذه الدنيا* ، هو كيف تتصرف النساء كي لا يفتقد ورق التواليت في الحمام . ان حساب الامتار الملفوفة في لفافة ، من حاجة يومية هي اكثر الحاجات حميمية ، واعصاها على التوقع المسبق ، واكثرها تاصلاً في كل فرد من افراد الاسرة ، لا يتطلب غريزة خاصة وحسب ، وانما موهبة ادارة جديرة بالاشراف على قضية باقة الخطورة . واذا كنت لم اقدرهن حق قدرهن ، واظن انني قد فعلت ذلك في كتبي ، فتكفيني تلك المزية كي اقدر النساء . واعتقد ان عدداً محدوداً جداً من الرجال يمكنهم الحفاظ على نظام البيت ، بكل تلك التلقائية والكفاءة . اما انا فلن استطيع عمل ذلك مقابل اي مال او اي سبب في هذا العالم .

في تلك اللوجستية المنزلية ، يوجد الجانب الخفي من التاريخ الذي لا يراه المؤرخون عادة . ولكي لا اذهب بعيداً جداً ، فقد كنت ارى على الدوام ، انه ما كان للحروب الاهلية الكولومبية ، في القرن الماضي ، ان تحدث لولا استعداد النساء على تحمّل تبعات العالم وهن في البيت . كان الرجال يحملون البندقية على كتفهم ، دون ان يلتفتوا الي الوراء ، ويمضون الى المغامرة ، دون ان يتخذوا اية احتياطات من اجل حياة اسرهم اثناء غيابهم ، بله في حالة مقتلهم

كانت جدتي تروي لي ان جدي قد التحق ، وهو شاب يافع ، بقوات الجنرال رافائيل أوريبي اوريبي ، ولم تعد تعرف عنه اي شئ طوال ما يقارب السنة . وفي فجر احد الايام ، سمعت نقراً على نافذة غرفة نومها ، وصوتاً لم تستطع تحديد صاحبه مطلقاً ، يقول لها : « اذا اردت ، يا ترانكيلينا ، ان تري

نيكولاس ، فاطلي برأسك على الفور » . فتحت النافذة بسرعة ، وكانت ما تزال في ذلك الجين صبية وجميلة جداً ، ولكنها لم تستطع ان ترى سوى مجموعة الخيالة التي مرت بسرعة عندئذ ، وكان زوجها معهم فعلاً ، لكنها لم تتمكن من معرفته بينهم . ان نساء منه امثالها كن يربين اولادهن ، ويجعلن منهم رجالاً من اجل نساء اخريات ، سيصبحن بدورهن بطلات مجهولات في حروب اخرى آتية، ويصنعن من بناتهن نساء من اجل ازواج محاربين آخرين ، ويتحملن عبء البيت على كواهلهن الى ان يرجع الرجال . اما كيف فعلن ذلك . باية مثل وباية موارد ، فذلك شئ لا نجده في نصوص تاريخنا الذي كتبه الرجال . والحقيقة انه في تاريخ اكاديمية التاريخ الكولومبية المعفر والمنافق كله ، لا توجد سوى امرأة واحدة . انها هناك منذ اكثر من سنة بقليل ، ولدي من الاسباب ما يجعلني اعتقد انها تعيش في خوف مما يتصنعه زملاؤها في المجد من حشمة وحياء .

ان تفسير انتهاء النساء ، الخاضعات لشرطهن الحالي كربات بيت ، الى الانتحار في الساعة السادسة مساء ، ليس بالامر الغامض كما قد يتبادر الى الذهن . فبعد ان كن جميلات في زمن مضى ، وبعد ان تزوجن وهن في ريعان الشباب من رجال مقدامين واكفاء ما يزالون في بداية طريق النجاح ، كن دؤبات ، عنيدات ، مخلصات ، وكرسن افضل طاقاتهن لدفع ازواجهن بإحدى أيديهن الى الامام ، فيما كن يربين اولادهن باليد الاخرى ، بتفان لا يرين فيه ، هن انفسهن ،انه معجزة يومية . انهن كما كنت اسمع امي تردد « يحملن على كاهلهن كل ثقل البيت » ، مثلما كانت تفعل جداتهن في حروب كثيرة اخرى منسية . ومع ذلك ، فإن تلك البطولة السرية ، ومهما كانت مضنية ومغفلة ، كانت مبرراً لهن في الحياة . لكنها تضاءلت بعد سنوات طويلة حين وصل الزوج الذي تعهدنه بالرعاية الى موقع لائق في عمله ، وبدأ يحصد وحيداً ثمار الجهد

المشترك ، ثم تضاءلت اكثر بعد ان كبر الاولاد ، وتعركوا البيت . فكانت تلك بداية فراغ كبير ، لكنه ليس بلا علاج بعد ، لان فيه فجوة من الطمانينة تتمثل في اكثر الاعمال سخفاً في العالم : اي الاعمال المنزلية ، التي تستطيع ان تؤديها الزوجات الكاملات المتوحدات في ساعات الصباح . كما انهن ما زلن لا يتناولن الطعام وحيدات اذا ما اتصل الزوج بالهاتف ، في اللحظة الاخيرة ، ليقول لهن الا ينتظرنه على الغداء : فثمة صديقات في وضع مماثل يتشوقن لمرافقتهن . ولكن بعد القيلولة المجدبة ، وبعد هاجس صالون التجميل ، ومسلسلات التلفزيون او المكالمات الهاتفية المطولة ،لا يبقى من المستقبل شيئاً سوى هوة الساعة السادسة مساء . ففي هذه الساعة ، اما ان يحصلن على عشيق عابر ، من اولئك الذين لا وقت لديهم حتى لخلع حذائهم ، واما ان يتناغولن زجاجة الاقراص المنومة كلها وكثيرات منهن ، وهن اللواتي كن اكثر وقاراً ، يفعلن الامرين كليهما .

ويكون تعليق الاصدقاء هو ذاته دائماً : « يا للامر الغريب ، لقد كان لديها كل ما تحتاجه لتكون سعيدة ! » . اما انطباعي الشخصي ، فهو ان اولئك الزوجات السعيدات ، كن سعيدات في الواقع فقط ، عندما كن يملكن القليل مما يحتجنه للسعادة .

غابرييل غارسيا ماركيز

قصص ضائعة

لست أدري إذا كانت توجد. ولا بد من وجودها، كتب تجمع مثل هذه القصص التي تتكرر في جميع أنحاء العالم، والتي يؤكد رواتها أنهم كانوا شهود عيان على وقائعها. وهذا يعني: إما أن الرواة يكذبون، وهو أمر محتمل، وإما أن تلك القصص تحدث فعلاً بشكل متشابه في أوساط ثقافية متباينة، وأزمنة مختلفة.

Kr 85.00

أزمنة للنشر والتوزيع
تلفاكس: ٥٥٢٢٥٤٤ ● ص. ب: ٩٥٠٢٥٢، عمّان ١١١٩٥ الأردن
ISBN 9957-09-008-9 (ردمك)